سمير عبد الفتاح

خيانات شرعية

رواية

الكتاب: خيانات شرعية
الكاتب: سمير عبد الفتاح
النوع : رواية
الطبعة الأولى : 2005
تصميم المتن :
سميرعبدالفتاح
لوحة الغلاف للفنان:
محمد يحيى
الأشراف الفني :
عمر جهان
رقم الإيداع : 9721 - 2005



تليفون 5842136 -7408117
E . samirabdelftah @ yahoo . com
E . rabmof @ hotmail . com

خيانات شرعية

رواية



الفصل الأول

لم يبق سوي الانتحار !

هكذا فكر "صفوان عبد الفضيل"، وهو يتطلع إلى قصر عابدين من شرفته المسيَّجة بقضبان حديدية..

كانت هناك دواب تَجر، وأُناس تُجر، وسيارات تمــلأ الميــدان بالضجيج والغبار، وتدور حول أرصفته الحجريــة، كمــا تــدور الدوابُ حول ساقية!

لم تكن في السماء نجومٌ تلمع، أو هلالٌ يهل، ولم يكن صــفوان ينتظر الليل أو النهار!

كان ينتظر عاصفة، يتوقع صاعقة، يود لو يبكي في جبٍ عميق فهل يرمي بنفسه من الدور الرابع.. أو يذهب إلى النيل كما ذهبت جارته الصغيرة، ويقول للدنيا وداعا؟!

لم يكن هناك ما يمكن حصره أو تحديده، سوي هم غامضٍ ثقيل يمضُ الروح ويثقل البدن ، ربّمــا عــاد لتعطلــه ، أو لإخفاقاتــه

العديدة! عشر سنوات وهو واقف عند هذه النقطة الرمادية الحرجة.. يريد العمل ولا يريد أن يعمل، تضنيه الوحدة، ولا يريد أن يزاحمه أحد : يستخدم فوطته ومرآته، ويحتل خنادق وعيه ووجدانه!

ولكن هل ينقذه ذلك مما يعانيه؟ ومِمَّ يعاني بالضبط؟ أهو انقباضٌ يمكن حله ـــ مثلا ـــ بالمال، أم هو اغترابٌ غامضٌ لا يمكن فهمه أو تأجيله؟

ما يذكره بكل وضوح: أنه سعي في مناكبها، فترك بيته قبل أن تشرق شمس، وعاد ـــ غاربا منكسرا ـــ بعد أن غربت ، ولولا هذه الشقة الحقيرة التي ورثها عن أبيه لنام في الشارع، لكن ما يؤلمه ويدهشه ، أنها لم تضعه في طبقةٍ أرقي، كما لم يضعه دبلوم التجارة في زمرةِ المتعلمين . فإلي متي يظل واقفا بين السماءِ والأرض ، وكيف يتحقق الرجل العادي في ظرف غير عادي؟!

لم يكن صفوان يبحث عن وظيفة ، بقدر ما كان يبحث عن حل.. فإن أردت أن تقتله: عيِّنه على درجةٍ يشعر فيها بأنه سيظل عبداً لقوانين أو لوائح وأوامر حتى ينتهي أجله!

ماذا يريد إذن؟

لا يعرف..

ولا يريد أن يعرف!!

ربَّما كان يريد أن يلعب .. أن يستكمل ما انقطع بموت أبيه.. ويظل ينتقل من لعبةٍ إلى أخرى ، حتى يعود آخر الليل

متربا.. خائر القوى. لا يهم بعدها أن ينام على سلم، أو في حضن أمه!

كان يرى : "أنّ على الدنيا أن تكون لعبة"، ومـــا علينـــا إلاّ أن نلعبها كما لعبناها صغاراً.

قال الطبيب : مشكلتك فيك .. حاول أن تتكيف وتتســـامي، ثـــم كتب بعض المهدئات ومضادات الاكتئاب ، وسأله إن كان قد قـــرأ شيئاً عن الوجودية ، أو الأنطولوجيا؟..

فلم يجبه بكلمة ..

ولم يصرف العلاج ، وظل يتجول في الشوارع القريبـــة مـــن وسط البلد ، حتى هدّه التعب، وازدحمت ذاكرته بهشيم الذكريات ، وأشباح السيقان، والصدور الناهدة ، فعاد إلى بيته متثـــاقلا تعبـــاً، ليرتمي على سريره البارد، متطلعا نحو ما فعلته العناكـــب حـــول المصباح الوحيد، مستسلما لأضواء النيون الملونة، التـــي كانـــت ترميها إعلانات الأسطح البعيدة، فتومض وتنطفئ..

وتومض وتنطفئ..

الفصل الثاني

صحا صفوان على صوت ضجيج يأتي مــن ميــدان عابــدين وحين حاول أن يفتح عينيه، داهمته شمس الصباح بضوئها الباهر فأغلقهما بسرعة ، وظل يسمع ضجيج الميدان مختلطــا بزقزقــة عصافير ، ونداءات باعة ، وتراتيل بعيــــدة ، فتمطـــي مقاومًـــا الكسل، وقام ليغلق النافذة فوجد الكناسين في الميــدان يســاعدون عربات الرش والمسح الآلي، وهي تنبش بأسنانها المعدنية المدورة أسفلت الشارع، فيما تكومت القمامة في حارتــه الملتويــة، وقــد نبشتها القطط، وفردت محتوياتها على البازلت المصقول.

وما إن عاد لسريره، حتى شعر بأنه لم يحسم قضاياه بعد، وأن نومه وسهره كانا محض غفوة وهدنة، عليه أن يحارب من جديد، ويواصل ما توقف عنده!

لم يكن هناك ما يمكن أكله.. أو شربه كانت أخر ملعقــة شــاي قد استهلكها قبل أن يراه الطبيب ، ولم تكــن لديــه الرغبــة فــي

النزول، أو فعل أي شيء، بعد أن أخطرتهم "البلديـة" بضـرورة التنكيس أو الإزالة.

فهل يذهب إلى أمه في حلوان؟.. وماذا يقول لها؟

أرضعيني من فضلك ؟ أنها لا تريد أن تـراه ، وهـو ـ فـي سريرته ـ لا يريد أن يراها.. فكلاهما يشعر بأنه خـان الآخـر، وتجاوز خطوطا ما كان له أن يتجاوزها..

أعطته ذهبها ليسافر إلى أوربا فسافر إلى بيروت، ومنها إلـى العراق، وبعد شهرين عاد مدينا ومنكسرا.. قال إنه لـم يجـد أي عملٍ يناسبه : عمل في مطعمٍ للكباب، ومخـزنٍ للغـاز وورشـةٍ للحدادة، ومصنعٍ للحلويات الشامية، ولم يعمر أو يتعلم أي شـيء!! كان يشعر أنه خُـدع وأُهين، وعليه أن يعرف من خدعه وأهانه.. كان أبوه قد ترك له الدنيا وراح.. ولم يكن له أصدقاء حتى يحمّلهم وزر ما جرى.. وقبل أن يدخل في متاهات غامضة ويتهم الزمن، عاد بآخر مليم في جيبه، ليجد أمه قد باعت كل ما يمكن بيعـه لكي تعيش.. فهي لا تعمل، وليس هنـاك مـا يقـيم الأود وحـين استنفدت كل الحلول، رضيت بالزواج من شيخ ضرير، لا يعـرف أحد كيف يأتي برزقه ".

حين عرض عليها ذلك لم ترفض ولم تقبل". لكن كان عليها أن تجيب على سؤالٍ عسير: من أين آكل وكيـف أعـيش؟ لا ابـن يرعى، ولا زوج يستر.. ولا أخ يخلص، ولا جار لديه ما يمـنح! فهل تعمل خادمة؟ حاضنة؟ أين وكيف.. وهي التي تعاني من آلام

الركبتين وتحتاج لمن يرعاها.. وينهضـــها عـــن الأرض؟! قـــال الضرير بصبر يوشك على النفاذ:

ــ إيه.. فكرتي؟!

فهمست بالموافقة، ثم جمعت حاجاتها في شنطة قديمة، ورافقته صامتة إلى حلوان، وهناك قادها من حارةٍ إلى حارة.. ومن سطحٍ إلى آخر.. وهنالك عرفت أنه مريضٌ وعقيم، وليس لديـــه دخـــل ثابت، وعرفت أيضا أنها لم تعد صغيرة، ولا جميلة، ولو قُدر لهذا الضرير أن يفتح عينيه ــ برهة ــ ما تزوجها أبداً.. ولو قُدِّر لهـــا أن تعيش بدونه ما ترددت لحظة!!

كان صفوان قد عاد من معراجه الدنيوي كافرا بكل شيء.. ولم يكن لديه ما يقوله لأمه المنتظرة.. هل يقول أنه خسر كل ما لديـــه ؟.. لم يعمِّر في أي مهنة؟ أو يصبر على أي سمكة فـــي أي بحر؟..

لقد أخذ منها كل ما كانت تدخره للزمن: ذهب لم تعـــد تلبســـه، رصيد في مكتب بريد كانت تدخره لآخرتهـــا.. وعـــدة بطـــاطين تركها المرحوم. وراديو قديم.. ولم يبق سوى جســـمها الهضـــيم.. وشعرها الأشيب القليل..

ماذا تقول له، وماذا يقول لها.. لا يوجد ما يقـــال. لـــذا كانـــت فرحته طاغية حين عاد ولم يجدها.. كانت قد تركت المفتاح عنـــد جارة تعاني من المرض، فلم يسألها عن أمه، ولم تسأله أين كان!!

وحين دخل الشقة، داهمته روائح الطلل والهجران، لـــم تكـــن نظيفة، ولم تكن وسخة، لكنه لاحظ أن هناك كوبي شاي لم يُغســـلا

بعد.. وخطابين كان قد أرسلهما من العراق على منضدة قديمة وكسرتي خبز تجمعت الصراصير والهوام حولهما.. فتح الثلاجة فواجهته رائحة المقابر.. كانت قد فُصلت منذ زمنٍ بعيد، ولم يكن فيها ما يؤكل أو يُشرب، ففتح حقيبته، وأخرج بقايا طعام كان قد قُدم له في الطائرة.. ومنعه الصداع والإحساس بالتقيؤ عن استكماله.

ـ أستاذ صفوان.. أستاذ صفوان!

ثم سمع طرقا على الباب، فنهض متكاسلا ليجدها أمامه!

ـ حمد الله على السلامة يا أستاذ صفوان!!

ودون أن تنتظر دعوته، دخلت وأغلقت الباب!

ـ جيت أمتي؟

ـ لسه حالا..

ـ حمد الله على سلامتك.

ـ الله يسلمك.

كانت تعرف أن أمه قد غادرت إلى غير رجعة، وكان يعرف أنها تعمل في محل للكي والتنظيف بالبدروم، وكثيراً ما كانت تأتي إلى السطح لتنشر ثياب الأغنياء، أما هي فتعرف أن: قلبه "جامد" "براوي"، ربّما لأنه يتطلع إلى البعيد.. إلى ساكنات القصور، ولا ينظر إلى ساكنات الحواري، والمرء سجين ما يظن!!

كانت تشبّهه بصيادٍ غبي، يكتفي بمتعة الصيد وحدها.. ولا يهمه أن تسقط السمكة، أو تَهرب غزالة البر!!

لذا كنست عليه ضرائح الأولياء، ورشت "ماء القبول" على باب شقته، ودسّت التعاويذ تحت وسادته، وحين فشلت كل المحـــاولات عملت بنصيحة زميلتها الأرملة، وحاولت أن تغتصبه فـــي غيـــاب أمه!.. لكنه قاومها، وصارحها.. بأنه لا يحب النساء، وإن قُدر لــه الزواج مستقبلاً، فلن يتزوج من عاملة حقيرة مثلها!!

ــ معايا دبلوم صنايع !!

ــ وأنا دبلوم تجارة

ــ طظ فيك.. وفي دبلومك!

ــ طظ فيكي وفي أبوكي!!

فكرتْ أن تصرخ وتفضحه، وفكرت أن تلقي بنفسها من النافذة علّه يدخل السجن ، لكنه ترك لها الشـــقة ، وذهـــب إلـــى ســـينما قريبة، وهناك رأي فيلمين مملين، وقبل أن يبدأ الثالث نام، حتـــى أيقظه عامل النظافة!!

● ●

يجدر بالفقر ــ دائما ــ أن يطفئَ شموع الـــذاكرة، لـــذا كـــان صفوان يخافه كما تخاف الناس من البـــرص.. ويعـــرف أن مـــن يتاجر بالملاليم لا يكسب سوي الملاليم..

لم يكن صاحب رسالة.. ولا موهبة من أي نوع، ولا يهمـــه أن يحوز ذلك أو يسعى إليه.. كان له مطلبٌ واحد.. وهو أن يحيا في هذه الدنيا حياة "تستحق أن تعاش"، وأن يأخذ نصيبه العـــادل مـــن "تورتة" هذا المجتمع، أو "هبرة من ثريده".. لذا كان إعراضه عـــن نوال له ما يبرره، لأنها تذكّره بفقره، وتقف بينه وبين ما يريد..

كان يعرف أنها تحبه ، وتشعر برجولته الكامنة، ولكنــه يــوقن أنه وحيدٌ في هذا العالم، وأن ما يخايله الآن قد يزول غداً.. ومــا عليه ــ والحال هكذا ــ إلاّ أن يحارب وحده وينتصــر فــي كـل المعارك، فهزيمة واحدة يمكن أن تنهيه وتنفي وجوده إلى الأبــد!! لم يكن على استعداد لأن يراهن بالدنيا على الآخرة، لأنه يعــرف أنّ من لا يستحلب الدنيا، ويصارع في كل أركانها، يخســر كـل ما كسب!

ترى أين قرأ هذا ومتي؟.. لا يــذكر بالضــبط، ولا يهمــه أن يذكره.. ربّما لأنه يعيشه كل يوم، ويشعر بحرارته اللافحة.. غير أنّ هذا كثيراً ما يفقده متعة التعامل مــع الــدنيا، ولا يعفيــه مــن السقوط في حفرها ووهادها الكثار.. ولــو قُــدّر لــه أن يخفــض ناظريه قليلاً لرأي "نوال" تشبهه في بعض النواحي، فهــي تعــيش في نفس الحارة، وتصغره بسنواتٍ قليلــة.. وفيهــا مــن الجمــال والأنوثة ما يمكن أن يرضيه ويشبعه، لو وضعها تحــت مجهــره أو نطاق وعيه!

أما هي فترى العمر يجرى.. وحدائقها تبور وتفقــد نضــارتها. كانت ــ بدورها ــ تنتظر من يأتيها على حصــانٍ أبــيض؛ مــن يصعد إلى شرفتها بحبلٍ من شذي، وحين خذلها الزمن تمنــت أن يأتيها على أي حصان، أو يصعد بأي حبل.. ولكي تساعده علــى ذلك، خاضت عدة تجارب، وتورطت في عدة مغامرات.. فعملــت بائعة في متجر، وسكرتيرة في مصنع، ومربية في حضانة، وأمينة لمكتبة، "وكاشيرة" في كافتيريــا، ومندوبــة مبيعــات، ومدرســة

خصوصية لأولاد موسرين ، وسكرتيرة مقيمة لرجلٍ عجوز، وعاملة في مصنع سجاد.

وحين سقطت بعض ثمارها، ولاحت بعض الشعيرات البيض عملت بمصنعٍ لصبغ الصوف، ثم معمل لسبك المعادن، فمكتب لتأجير التوابيت، وها هي تعمل في محل للكي.. وخلال هذا الكر والفر، تعرضت لكل ما يمكن أن تتعرض له فتاة جميلة، ناهدة الروح والبدن، فركبت سيارات، ودخلت فيلات، ورأت "أفلاما" وسمعت أفلاما.. ثم قبلت هدايا ورفضت هدايا.. وتعرضت للخطف والاغتصاب.. فهربت من مواقف، وتورطت في مواقف. وتحت لافتات الزواج والوعد والوعيد، سمحت ببعض الأحضان والمداعبات، وسافرت إلى بعض الموانى والمطارات، وانتظرت في بعض السيارات لكنها لم تسمح ــ خلال كل ذلك ــ بأكثر من ذلك!!

كانت تُوقن أنها كمن تحمل على رأسها طبقا من الزيت المغلي، وعليها أن تحافظ على توازنها حتى لا يسقط على صدرها فيحرقه، أو وجهها فيمسحه، وكلما ضعفت في موقف، بحكم تكوينها البشري، أو أرضها التي لم ترتو بعد، كانت تنفر كغزالة البر، وتلجأ إلى غابتها الأولى .

كانت ــ مثله ــ وحيدة، ولا يوجد هناك من يحاسبها، بعد أن رحلت الأم، وبقي الأب أسير محبسه!

وهو ما جعل حرصها ــ على جسمها ــ أشد وأدعــي ، لــيس بحثا عن فضيلة ، أو طمعا في وسام ، وإنما لأنها تراهن بكــل ما تملك، وتغامر بآخر مراكبها في بحر الحياة!!

وبدلاً من أن يضعفها شغفها بالأولاد والاستقرار ــ مثــل كــل البنات ــ ساعدها على التروي، والصبر الجميل.. وكلمــا عــادت إلى بيتها، ونظرت إلى جسمها في المرآة المشروخة، شعرت بأنها كانت على حق.

فمن يجوس في غابات هذا الشعر الناعم، أو يطوف حول هذين النهدين الناهدين ، أو يقترب بشفتيه من هاتيك الكرزتين، لابــد أن يكون لديه ما يقوله، ومعه ما يدفعه، ولــه مــن يضــمنه ويكــبح جماحه.

وها هي ذي بعــد أن تجــاوزت الثلاثــين ، واخــتلط اليــانع باليابس، والأبيض بالأسود .. بدأت تشعر بأن كل خطواتها لم تكن صوب السعادة .. ولا الصواب المطلق .. وأنها كمن حفــر عــدة حفر، وتركها دون أن ترتوي!!

نعم.. كانت مثله.. تتطلع للأفق البعيد، فتنجو من حفرة لتســقط في جب، فراشة جميلة.. محبة للنور والبراح، لكنها لا ترى ذلــك الخيط الرهيف الذي يفصل دائماً بين النور والنار!

بين نهاية البداية!

وبداية النهاية!!

الفصل الثالث

ها هو صفوان يرقد على سريره البارد، ويـديم النظـر إلـى السقف الكئيب، ثم يضع يديه تحت رأسه، ليتابع العناكـب وهـي تغزل شراكها في الركن البعيد..

لقد أتي بالجريدة .. لكنه لم يتصفحها.. ولا يحب أن يقرأ كـل ما فيها.. فهو لا يحب السياسة ، ولا ينحاز لأي فريق، ولا يفهـم في الرياضة، ولا يؤمن بالحظ أو يحب الكلمات المتقاطعة، ولـيس لديه أي صبر على استكمال مقالة ، أو متابعـة موضـوع، فقـد اشتراها لهدف واحد، وهو أن يبحث عن أي وظيفة ، بعد أن خاب سعيه ، وكلّتَ قدماه . ففي الصباح ترك شـقته وبحـث عـن أي وظيفة تناسبه فلم يجد سوى وظائف لا تتفق مع طبعه أو مؤهلـه، كان أفضلها عاملا في ورشة، أو بائعا في وكالة، أو فراشـا فـي مصنعٍ .

وهاله أن يعرف إن من يُعلِّم الأطفال في حضانة لابد أن يكون حاصلاً على مؤهلٍ عالٍ ، ولديه خبرةً لا تقل عن ثماني سنوات.

فماذا يطلبون إذَن ـــ لمديري العموم؟

إنه لم يحصل على الدبلوم صدفة، ولـم يجـده فـي صـندوق قمامة.. فقد سهر، وذاكر نجح ورسب، ضرب واضطـرب، حُـرم من اللعب والسينما. وجرى خلف الترام، وكاد الترام يجرى عليه! حرمه الامتحان من أول موعد غرام، وانتظار النتيجـة مـن أول رحلة إلى القناطر. هدده أبوه بالطرد إن رسب هذا العـام.. فكـاد يفقد بصره من كثرة المذاكرة.. وأعصـابه مـن كثـرة الكـذب ومستقبله من كثرة الغش، وعقله من قلة النوم!

وها هو يكتشف بأن الغش قد طال كل شيء ، وأنـه ـ حتـى بالغش ـ لم يحصل على أي شيء. وعليه أن يعمل : حمالاً فـي جمرك أو بواباً في مصنع، أو خفيرا في مزرعـة صـحراوية، أو جامعًا للملح على شاطئ بعيد.. وحتى هذه الأعمال الحقيرة لم تعد سهلة لأمثاله.. إذ تجد دائماً من يزاحمك فيها.. ومن يسحق قدميك ليصل قبلك.. ومن يحتاج لرشوة أو واسطة! ومع ذلك، بل وبرغم كل ذلك ارتدي أفضل ما لديه. وسارع إلى الميدان القريب.. حيث وجده يغص بالأجراء المحدثين ـ رقيـق العصـر ـ وضـحايا "الإصلاح" الزراعي. يتقاتلون من أجل الحصول على أي فرصـة للعمل .. هدم بيت أو رفع أنقاض.. حفر نفق، أو ترميم شارع!

فلاحون لا أرض لهم ولا ملجأ، ينامون عند أقاربهم، ويـأكلون الحصرم، حرفيون تركوا أدواتهم بحثاً عن أي عمـل.. أي شـيء يضمن لهم السجائر والطعام الساخن.

يعرضون صحتهم ووقتهم على أي سيارة تقف، ويخرج سائقها رأسه ليختار من يريد، ويطرد الباقي بإشارات محتقرة.

لكم ذكَّره ذلك بعصور العبودية، بعد أن تقنعت وتجملت.. فلم يعد العبد يساق من أغلاله، ولكن من معدته، وربّما من وعيه!!

والنتيجة : أنه الآن بلا عمل .. طاقة تهدر كل يوم.. وليس لديه ما يسعى إليه أو يتوقع حدوثه.. لقد قاوم الانتحار أكثر من مرة، ولكن ما الحل.. ليس هناك ما يعيش من أجله، وليس هنالك من يموت ليرضيه أو يسعده. كلٌّ في قوقعته، يضع عطره تحت أنفه كي لا يتسلل إلى غيره..

حتى نوال جارته المراوغة لم تعد تبادله النظرات، أو تفتح صدرها لمداعباته، بعد أن فقدت الأمل في كل حل، وبعد أن أخطرها ــ صراحة ــ أنه لا يجد حلاً قريباً أو بعيداً .

كل الطرق مغلقة.. ولم يعد أمامه سوى الانتحار، فهو الوحيد المجاني وهو المتاح الوحيد لكل البشر، لقد صارحها بأن نظراتها تعزيه.. ولولا لمساتها الحانية ما بقي ساعة على قيد الحياة.

تعرف أن الشقة موجودة، والحب أيضا.. ويعرف أن الحب وحده لا يكفي.. فهناك دائماً معدة تهصر وتعصر، وقلب ينبض ويرفض، وجسم يطرد ويجلب، ولسان يمدح ويقدح، وعليه دائماً أن يمسك الحية من رأسها، والنحلة من بطنها، والأمور من أواخرها.

الفصل الرابع

وهاهو قد جاوز الثلاثين من عمره، ولم يعد في الجراب حيلة..

حتى الأحلام لم تعد ممكنة، وما يؤلمه: أنه لم يطمع في منصب وزاري.. أو رئاسة جمهورية.. بعد أن علمته الحياة أن يحمل ما يستطيع، ويأكل ما يستطيع هضمه، ويترك الأحلام لمن يستطيع تحقيقها ، يكفيه راتب شهري يقيم أوده ، بعد أن عمل في الملاحات حتى أكل الملح أصابعه، وفي تكرير السكر حتى أصيب بالإغماء، وفي جمع روث الأبقار حتى أصيب بالقرف، ومحاجر الجير حتى أصيب بالجرب.. وحين فشل في تأجير صحته ووقته، فكر في تأجير شقته.. لكن القادم نصحه بالتريث فليست كل المساجد صالحة للنوم . همس في أذنه:

احبس نفسك في غرفة ، ودع لي الصالة ، أما الغرفة الأخرى، فدعنى أؤجرها بالساعة، مقابل أن تعفيني من إيجار الصالة!

كاد صفوان يقول شيئا ، لكن القادم صاح محذراً ومذكّراً بالحال، فوافق على مضض، لكنه بعد أسبوع داهمته

المباحث، وكاد يدخل السجن لولا أنهم وجدوه مغفلاً،ولا يعرف المخدرات، ولا يغوى النساء، فتركوه بعد أن وقّع، وتعهد، وأقر!!

وحين عاد لشقته الصغيرة قال لنفسه : لأبحث ثانية في جريدة اليوم ، علني أجد وظيفة تليق بما أحمل، وتجدر بما أستطيع. وحين وجدها، ذهب ليقف في طابور على سلم طويل، لكن طاقته على الاحتمال نفدت ، حين قضي ساعات طويلة عرف بعدها ما كان يجب أن يعرفه: وهو أن كل الوظائف المنشورة لم تكن شاغرة، لكنها تمثيلية تتكرر كل يوم، وفي كل مكان ثم عرف ما هو أدهي وأمر، وهو أن نصف البشر متبطلون، أمّا نصفهم الآخر فلا يعمل!.. كما عرف أن نصف كلام البشر لا أهمية له، أما نصفه الآخر فيمكن تأجيله!

لذلك لم ير الشارع لعدة أيام قضاها في البيت القديم راقدا لا يريد أن يقوم ، ولا يريد أن يرى أحدا.. أو يرد على أحد.. حتى النوافذ لم ير أي جدوى من فتحها، أو النظر منها فليتشاجر ــ إذن ــ من يتشاجر، ويسقط أو يحترق من يريد!!

ها هو الساكن الأخير قد ترك له ما يأكله، ولكن ماذا عن الأيام القادمة؟ ثلاثون عاما قضاها في هذه الدنيا لم يخرج بصديق، ومن عرفهم أو اقترب منهم هاجروا أو ماتوا، ومن بقي حيا شغلته الحياة أو شُغل بها.

لذلك فهو يريد أن يشرب الدنيا جرعة واحدة، لكنه لا يعرف كيف يبلعها، ولا كيف يهضمها.

وما يضايقه ، ويوتره ، أن هنالك مـــن يقطّرهـــا فـــي كـــأس نظيف، ويشربها ـــ أينما أراد ـــ على مهل!!

لذا فكر مجدداً في الهجرة إلـــى أي بلـــد أجنبـــي، أي مكـــان يستوعب جنونه واختلاقه، تعلم الفرنسية والإنجليزية، قرأ عن كندا وأمريكا واستراليا.. ثم نسي تجربة العراق وبلاد الواق واق..

وتردد على بعض السـفارات والقنصـليات .. قـدم أوراقـا وشهادات، وقف في الحر والبرد، وتعرض لفحوص واختبارات.. وبعد أشهر طويلة أتته الاعتذارات والمبررات.. فهم منهـا أنهـم اكتفوا بمن لديهم من إرهابيين، وقطاع طـرق، وطلبـت إحـدى السفارات الأفريقية أن يثبت أنّه : لن يهرّب العـاج، أو المـاس! وطلبت أخرى أن: يقدم ما يثبت أنه رجل أعمال سـخي، بعـد أن توقفوا عن قبول الخرز الملون..

وحين أخطرهم بأنّه لا يريد سوى الهجرة والعمل في بـلاد الأفيال، لم يفهموا شيئاً.. فرئيس الجمهورية نفسه لا يعمل، بعد أن توقفت تجارة الرقيق والعقيق ولم يسبق ـــ أبدًا ـــ أن تلقـوا طلبـا بمثل هذه الغرابة!!

الفصل الخامس

في مساء اليوم التالي ظل "صفوان" يتسكع في شوارع المدينة ، حتى انتصف الليـــل.. كانـــت روائـــح المشـــويات والقشـــريات والكافيار تغزو دهاليز أنفه، وتسيل لعابه.

وفي المطاعم الفاخرة، رأى أولاد الأغنياء يتضـــاحكون، وهـــم يأكلون مشويات غريبة، ومزات متنوعة، ويركبون "موتوسيكلات" سباق فائقة السرعة، وخلف كل صبي، صبية شبه عارية، تحرّض المتزوج، وتُحبط العازب! ومن خلـــف الزجـــاج المصـــقول رأى جرسونات رشيقات، لامعات الشعر والعيون، يرتدين ملابس أنيقة تظهر رشاقتهن، وسيقانهن اللامعة المنتهية بكعوب مصقولة، كاملة الاستدارة، فيما تتألق أضواء المحلات، والسينمات والمسارح على جانبي الطريق، وتومض الأضواء الملونة على مدى البصر!

وعلى جانبي الطريق تقف سيارات شبابية مجنونة ـــ كاجوال ـــ قادمة لتوها من ألمانيا، يركبها ـــ ويدوس علـــى أنفهـــا ـــ أنـــاس شبعانون، لهم أنوفٌ لامعة، وعيون ملونة، لا يغضـــبون أبـــداً إن

عادوا آخر الليل ولم يجدوها.. ولا يتعاملون بالعملـــة المحليـــة إلاّ لكي يرموها للسعاة، والشحاذين، وحارسي السيارات!

وفي الميدان الأنيق المحاط بالبنايات الباروكيـــة والمورســكية الشاهقة، رأى تمثال الجد "طلعت حرب" يتطلع إليـــه مـــن فـــوق قاعدته الرخامية، ويشير إلى المجهول!! فيمـــا تـــزدحم الشـــرفات والبدرومات بشركات السفر والسياحة ومكاتب التوكيـــل والبنـــوك والسفر.

وما إن انعطف نحو عابدين حتى شعر بالبؤس والفقـــر: أنـــاس رماديون ينتظرون الباصات، فلاحون يسعون إلى قـــراهم النائيـــة بأجولتهم وقففهم، باعة نفتالين ودبابيس، ومناديل ورقية يهيمون في كل مكان.. كلاب لا صاحب لها، تنام بجوار صـــناديق القمامـــة.. شباب بلا عمل يتسكعون في الشوارع، ويقفون علـــى النواصـــي حتى الفجر.. لم ينظر صفوان إلى ساعته، فلم يعد الزمن يعنيه في شيء.. مادام سيعود في النهاية إلى شقته الحقيرة.. بحارة معتمـــة تتلاصق فيها البيوت والأجساد، وتتناقل عبـــر جـــدرانها الحقيـــرة تأوهات وشكايات ــ ليست كلها حقيرة ــ وينســـل مـــن أبوابهـــا الفقيرة بنات ونساء إلى جهات غير معلومة، ويعدن قبل أن يطلـــع الفجر، ويأتي إخوتهم أو أزواجهن من الجامع القريب!

ولولا وجود قصر عابدين لتغيرت كـــل الخـــرائط ، وتباينـــت كل المواقف . يكفي أن تصعد إلـــى أي ســـطح لتـــرى ضـــوءه الباهر، وامتداده المهيب، وتعرف أنه من أوائل القصور التي بُنيت في هذا الحي الذي لم يعرف الحـــدائق أو النـــوافير، ولـــم تـــبلط

شوارعه وحواريه إلاّ مؤخراً، فإن قلت لرفيق لا يعــرف المكــان إنك ساكن في عابدين، حسدك على ذلك! ففي هذا الميدان العريق، ظل عرابي على حصانه، حين صاح في وجه الخديوي وفيه أيضا نزلت الإمبراطورة أوجيني، وتفيــأ بظلالــه ونســتون تشرشــل ومونتجمرى، وحاصره رجالات الثورة، وتغنى بجمالــه الشــعراء والأدباء والرؤساء، قبل أن يصبح متحفا للعوام!

وإن قلت ذلك لرفيق يعرف التــاريخ، وقــف علــى طبقتــك ومستواك الاجتماعي.. ورجّح أن يكون جدك أو أبوك كان خادمــاً في القصر، أو ماسحاً لأحذية الملك ، ولهذا سكن بجــوار القصــر الكبير، كما سكن أجداده الأُول حين بنوا الأهرامات، وعاشوا فــي بيوتٍ كالمقابر!

ـــ أنت يا أعمي !!

هكذا صاح سائق في صفوان، وهو يكاد يسحق قدميه.

ـــ مش تاخد بالك؟!

اعتذر صفوان بإيماءة من رأسه دون أن يخرج يديه مــن بنطالــه وواصل الطريق إلى بيته دون أن يرفع عينيه عن الأرض.

كان يمشي وكأنه ترك الجزء الآلي منه يعمل.. فانعطف يمينــاً ويسارا.. وعند الناصية وقف، وسأل نفسه سؤالاً لا يقبل التأويــل أو التأجيل: ـــ أي الأشياء أسرق الآن؟ صيدلية؟.. مقهى؟.. شــقة مهجورة؟ سوبر ماركت؟ سيارة مفتوحة؟ بار مزدحم؟!

لم تكن لديه أي خبرة يستند إليها، أو خطة يعتمدها.. ربّما كان يبحث عن أي نزوة أو مغامرة، وربّمــا كــان يريــد أن يرتكــب

حماقة ما.. يمكن أن يكررها فيما بعد! لكن الشجاعة خانتــه فـــي كل المواقف، فما يكاد يدخل صيدلية أو مكتبــة أو حانـــة، حتـــى يتردد، ويتلعثم، ويخاف أن يفتضح أمره، فيتحجج، ويسأل صاحبها عن الساعة، أو عن سلعة يعرف أنها غير موجودة. ثــم ينســحب بسرعة، وهو يشعر أن صاحب المحل قد قرأ أفكـــاره، أو عـــرف مقصده! ماذا يفعل إذن؟ وكيف يغتني كالآخرين؟.. ومتـــي ينـــتقم لفقره وحرمانه؟ وإلى متى يظل صائما عن نعم الله الكثيـــرة التـــي تمور من حوله؟!

فكر فيما يرتجيه فوجده قليلا للغاية: يريد شيئاً يأكلـــه، ولبســـا يلبسه، وظيفة تستره.. فهو لا يدخن، ولا يتعاطى المخـــدرات، ولا يطمح إلى قصر، أو سيارة فارهة. وفي نفس الوقت لا يعادي كـــل ذلك... لكن الفقر عوده دائماً على الحد الأدنى من كـــل شـــيء.. فأصبح يكتفي من غابات العالم بشجرة، ومن بحاره بسمكة، ومـــن نسائه بامرأة، ومن ذهبه بدبلة!!

لم يعد يخاف السجن، فهو سجين شقته، سجين وعيه المحـــافظ المهادن، في عالم يتصارع فيه الناس كما تتصارع النسور علـــى جيفة. لا مكان فيه لصابر أو مهادن، ولكن لمن يأخذ الدنيا غلابا..

كان ذلك يضايقه كثيرا.. ويطيل انطواءه، إذ لمـــاذا لا يكـــون العدل؟.. لماذا لا تتاح الفرص لمن يرتجيها؟ لماذا يؤخذ باليد مـــا يجب أن يؤخذ باللسان؟

كانت الشوارع قد خلت من المارة.. حين فكـــر صـــفوان فـــي خوض المغامرة الأولي وما كاد يدخل مطعما فاخرًا حتى داهمتـــه

المخاوف، وجلله الخجل.. يسرق ماذا؟ كيس فينو؟ قطعة كيك مغلفة؟ يأكل ويجرى؟ لماذا تعلم إذن؟ وكيف ينظر إلى نفسه في أي مرآة بعد ذلك؟!

لكم شعر باحتقار لنفسه لم يشعر به من قبل. وتمنى أن يعود إلى شقته فورًا، أو تسحقه سيارة مارقة..

ولكن لماذا لا يكون له ما للآخرين؟.. أليست هذه البلد بلده أيضا؟ ألا تحاسبه حين يخطئ، أو يشرد، أو يخون؟ لماذا لا تعطيه ما يستحق؟ "بعضا من حليبها المبذول للجميع؟

أو ثمرة من ثمارها الدانية؟"

كانت هذه الأفكار كافية لأن تدفعه إلى أقرب بار!. في البداية داهمته العتمة والبرودة، ومن هيئات الزبائن عرف أنه بار شعبي فقير، لكنه كان بحاجة لأي سند.. أي مدد يُعينه على النسيان.. يُسكت فيه ذلك الجزء الصاحي من عقله.. من ضميره.. من عصبه الحائر!!

طلب كأسا، وكأسين، حتى شعر بحلقه يحترق، والضباب يغشي عينيه ويميت قلبه.. فداهمته شجاعة لم يألفها في نفسه.. حتى أنه خرج من البار دون أن يدفع الحساب، وساعدته هذه الجريمة الصغيرة على ما هو أكبر، لكنه ما إن يفكر حتى تضطرب عواطفه، فيعرف أن الخمرة الرديئة لم تفعل فعلها، وعليه أن يعود للبار ليُجهز على ذلك "التايمر" الذي ما يزال يعمل في ضميره ويفسد العلاقة بين مطامح الروح، ومطالب الجسد!

لكنه ما إن بلغ البار حتى خشي من صاحبه، فواصل طريقه إلى بار آخر وآخر.. وكلما هم بالدخول شعر بثقل في ساقيه، وذنب يمض قلبه، ووجد لكل حماقة ألف سبب لتركها أو تأجيلها.

لكنه تعلم شيئا لم يتعلمه من أمه أو أبيه، وهو ألاّ يسبح ضد فطرته وطبعه، فلا يمكن أن يكون غير ما كان، وأنه لكي يعيد تشكيل وعيه وطبعه، عليه أن يعود إلى رحم أمه، ويبدأ من الصفر.. من النطفة الأولى.. ولأنه عجز عن فعل ذلك فقد ابتاع كل الجرائد، وبحث فيها عن وظيفة جديدة.. وفي الصباح دخل مكاتب ، وصعد سلالم ، وفي آخر الليل عاد يسحب ساقيه، ويستعد لجولة ثانية ، لم يكن هناك ما يخسره، فتقدم لكل الوظائف الممكنة، وترك سيرته في أكثر من شركة، وتليفونه في أكثر من مكان، ووقع على عدة إقرارات وتعهدات دون أن يفقد الأمل.

وبعد منتصف الليل، عاد مرهقا فأكل ما تيسر.

ونام بحذائه!!

الفصل السادس

في الصباح سمع جلبةً بمدخل البيت، وسمع من يناديه باسمه وكنيته، فتجاهل الأمر لبعض الوقت، فلا أحد يسأل عنه، لكنه حين سمع اسمه كاملا سعي إلي السلم فوجد أناساً يصعدون إليه فارتعب وفكر فيما حدث في البار، وفي كيفية الهروب فلم يجد مفراً!

ــ أنت صفوان عبد الفضيل ؟

لوماً برأسه، وهو لا يجد لعلبا يبتلعه، كان يتوقع الشر في كل الحالات، ويقدم الضرر على المنفعة.

ــ احنا قناة الــ a.w.c قناة خاصة، عندنا برنامج مباشر اسمه: "أسبوعان من حياة مواطن" بنختار فيه مواطن عادي ونسجل معاه أسبوعين كاملين على الهواء مباشرة، مش حتعمل أي حاجة.. حتاكل، وتشرب، وتنام، وتقبض. قلت إيه؟

ــ بس كده؟ طب وده يعتبر شغل ؟!

ــ اعتبره شغل.. أنت مش طلبت أي وظيفة وتركت عنوانك عندنا؟ تحب تاخد كام؟

ــ طب شيلوني أي حاجة.. طلّعوني أي سلم.. حسّسوني أنها فلوس حلال!!

ـ خمسمائة جنيه كويس؟.. ألف؟

ـ لكن....

ـ خلاص.. خليهم ألفين.. مرتب وكيل وزارة. موافق؟!

وقبل أن يتأمل ويستوعب ويستعيد، وضع الرجل الألف الأولى في يده وقدم ورقة:

ـ إمضي.. والألف التاني بعد التصوير إن شاء الله!!

أمسك صفوان بالقلم، وهو لا يعرف إن كان يحلـم أم يأمـل .. كل ما يذكره أن حياته قد اضطربت، فتـداخلت فيهـا الخيـالات وأحلام اليقظة، مع الواقع الرازح من حوله..

ـ إمضي يا أستاذ .. ما فيش وقت.

لم ينتظر طويلا.. فوقع على العقد دون أن يقرأه.

ـ تحب نسجل إمتي؟

ـ زى ما تحبوا..

ـ بعد بكره كويس.. وأهو نعمل شوية دعاية للحلقة .O.K ؟!

ـ O.K !!

وقبل أن يغادروا الشقة قدموا أنفسهم لـ صفوان الذي لم تغادره الدهشة بعد.

ـ أنا عبد القادر الشـهري المخـرج ، ودا فتحـي البيـومي المعد، ودا سعيد شربت المصور، واللي اداك الفلوس دا الأسـتاذ صفوت جمجوم مدير الإنتاج.

وقبل أن يغلقوا الباب خلفهم، رجوه أن يترك كل شـيء علـى حاله.. وألا يغير أي شيء في الشقة، أو ينقل مقعدا من مكانه!

وحين تأمل النقود بين يديه، وشعر بملمسها الغريب تيقن أن ما سمعه وشعر به، كان حقيقة واقعة.. وأنَّ ما بين يديه الآن هو ثمرتها اليانعة.. ولكن ما لم يصدقه بعد هو ضخامة المبلغ المدفوع! ألف جنيه في أسبوع؟! إنه مرتب يفوق الخيال، ويحسده عليه أي رئيس جمهورية!!

كان أول ما فكر فيه — لكي يقطع كل شك — أن ينزل الآن فيشتري ما يريد — وما أكثر ما يريده — فانتعل ما تيسر، ونزل مسرعاً فابتاع أكلاً ولبسا ومأكولات كثيرة، ملأ بها الثلاجة الفارغة، وتخلص من الملاءات القديمة التي حال لونها، وتمزقت أطرافها.. ورمي في القمامة حذاءه المثقوب، وبيجامته التي أكلتها القذارة، وطالها الجرب.

وفي الصباح ذهب إلى السنترال ودفع الغرامة فعادت الحرارة ودفع الإيجار، وفواتير الكهرباء، وغير أنبوب الغاز، وملأ البرطمانات بالشاي، والسكر، والسحلب، والقرفة، واليانسون، وأتي بورق ملون، ففرشه في المطبخ، ثم بخادمة عجوز فمسحت الشقة "وزفرت المواعين" برائحة اللحم والسبانخ، ورشت الصرأصير، وسدت حفرتين للفئران.. ثم أتي بمقعد قديم، فركبه ليغير المصابيح التي احترقت منذ أعوام، وغلفتها العناكب، وأتي بمسامير فثبت بعض المقاعد وطاولة المطبخ، وقبل أن يجزل العطاء للخادمة، رجاها أن تدعك حوائط الحمام وملحقاته ففعلت.. وقبل أن تغلق الباب خلفها، كان قد نزل بسرعة واشترى بعض المزروعات والأزهار، فوزعها على السطح وفي أركان الشقة.. ثم نام قرير العين!!

الفصل السابع

في الصباح نادوا عليه مجدداً فلم يسمعهم .. ركنوا سـيارتهم اللامعة فأغلقت الحارة، وصعدوا بمعداتهم الثقيلـة إلـى سـطحه النظيف.

فتح صفوان بابه وهو يغالب النعاس.. لكنـه مـا كـاد يـرى المخرج ومساعديه، حتى بش في وجوههم.. ومد يده ليصافحهم.. بعد أن تيقن أنه لم يكن يحلم.. لكنهم تجاهلوه، وانتشروا بمعـداتهم داخل الشقة وخارجها.

ــ هيه.. إيه الأخبار؟

ــ عال..

ــ نشتغل ؟

ــ تحت أمركم .

وقبل أن يفكر صفوان في أي شيء ، كان المخرج قـد سـحبه وأغلق الباب، وجلس في مواجهته على مقعد قديم:

ــ شوف يا سيدي..

وراح يعدد له الحركات، ويحدد السكنات.. دون أن يفقد نظراته اللاسعة.

ففهم صفوان أن عليه أن يعيش كما كان يعيش من قبل، وأن ينسى أن هناك ست كاميرات تصوره .. واحدة في المطبخ، وأخرى في الصالة ، وثالثة في غرفة النوم ، ورابعة في البلكونة، وخامسة على باب الشقة، أما الأخيرة ففي غرفة الكراكيب. ولكي يطمئنه، أخطره أنها كاميرات حديثة وصغيرة، لن تشكل له مشكلة فهي تتحرك عن بعد، أما غرفة "الكنترول" فستكون في مكان آخر خارج البيت، بل وخارج الحي كله، وما عليه إلاّ أن يعيش مثلما كان يعيش قبلا.. يأكل ما كان يأكله، ويشرب ما كان يشربه، ويحادث من كان يحادثه، أما إذا كانت له علاقة نسائية يمكن أن تتجاوز القبلات البريئة ، فلينتظر حتى ينتهي التعاقد، حفاظا على تقاليد المجتمع وعاداته، وغمز له بعينه ففهم.. وضحك!!

في هذه الأثناء كان العمال والفنيون يعلقون كاميراتهم في كل مكان، ويثقبون الحوائط والأركان بآلات كهربائية مزعجة، فيما تأهب الكوافير، ومدير التصوير، والمونتيرة لبدء أعمالهم، فوجد صفوان من يقص شعره، ومن تجفف له عرقه، ومن تضع البودرة تحت عينيه، وتحف حاجبيه بملقاط صغير في يدها..

ــ كل المطلوب منك هو تنفيذ الأوامر.. ولا تخرج إلا بإذن .. مفهوم؟

هكذا قال المخرج وهو يشرف على وضع الكاميرات، ويتأكد من الإضاءة، ويساعد مدير التصوير في تحديد الأبعاد والزوايا..

ــ تحب نغير اسمك؟

ـــ لا .

ـــ عارف اسم البرنامج؟

ـــ أسبوعان من حياة مواطن!!

ـــ برافو.. لبّسه المايك يا رضوان.. وعرفه ازاي يخلعه ويشغله!!

كان أولاد الحارة قد تجمعوا على السطح ليعرفوا ما يجـــري.. فطـــردهم صفوان على الفور، ودخل ليغير ملابسه قبل أن تعمل الكاميرات.

ـــ لو تحب نركب لك كاميرا في الحمام ممكن نـــزودك 50% من الأجر.. إيه رأيك؟

ـــ لا .. الحمام لا !!

ـــ ليه؟ أنت أولى بألف جنيه في أسبوعين.. ويكون في علمك.. أنا ممكن اظبطها على النص اللي فوق بس.. قلت إيه؟

حاول صفوان أن يجد منفذاً للهروب.. لكن المخرج ضغط على يده، وهمس في أذنه، ثم غمز بإحدى عينيه، فوافق على مضض..

قال صفوان لـــ صفوان: لأصبر على الاستحمام أسبوعين مثلما صبرت على الفقر سنوات. وبالألف جنيه أستطيع بعدها أن أســـبح في شرم الشيخ، وأترك جسدي لنعيم "الساونا" وبنات الساونا، ومساج الساونا، وكريمات الساونا.. يا عيني على الساونا .

ـــ إن كانت لك آراء سياسية تغضب الحكومة، فلا داعي لها.. أما الدين فأبعدنا عنه لا تفت في أي شيء.. كل. وأشـــرب. ونـــم. وبعد أسبوعين أفعل ما بدا لك!!

هكذا نصحه المعد وهو يغادر الشقة.. فيما راح المخرج يتـــابع "البروفات" على "مونتور" صغير مع مساعديه، ويختبر الإضاءة.

ـــ خلاص يا عم صفوان.. اتفقنا؟

ـــ اتفقنا..

ـــ أي خروج تتصل بي عشان أبعت لك كاميرا متنقلة، تـــروح معاك في أي مكان. مفهوم؟

ـــ مفهوم

ـــ قدامك ساعتين بالضبط.. ونبقي على الهوا لمدة 24 ســـاعة في اليوم.. ماتخعلش المايك إلاّ لما تنام. مفهوم؟

ـــ مفهوم!!

الفصل الثامن

مر اليوم الأول على صفوان، كما تمر الأيام العاديـــة.. صـــحا من النوم متأخرا فدخل الحمام، وأعد فطوره المعتاد، ثـــم خـــرج ليروي مزروعاته المنتشرة على السطح والأسوار، ومـــن هنـــاك تطلع إلى قصر عابدين.. حيـــث رأى الحـــرس وهـــم يغيـــرون وردياتهم بصلابة عسكرية واضحة. وعلى باب شقته التي تحتكـــر السطح الرحيب لاحظ الكاميرا وهي تتابعه آليـــا فتجمـــد لـــبعض الوقت، لكنه ما لبث أن تذكر ما حدث، فـــأغلق البـــاب، ووضـــع "المايك" في مكانه فسمع المخرج يناديه:

ــ صباح الخير يا أستاذ صفوان.

ــ صباح الخير..

ــ احنا مش اتفقنا أنك ماتسبش المايك إلاّ لما تنام؟..

ــ آسف يا أستاذ عبد القادر .. مش حتتكرر.. نسيت!

ــ أرجو ذلك.. تحب تقول حاجة للمشاهدين؟.. أنـــت حتكـــون على الهوا بعد ربع ساعة!

ــ أحب أشكرهم.. وأتمنى إني ماكونشي ضيف تقيل عليهم.. و..

ـــ لا .. لا .. تقدر تقدم نفسك قبل ما نفـــتح الخـــط المباشـــر بينكم.. سمعت المذيعة قالت إيه امبارح؟

ـــ معنديش تليفزيون ولا راديو..

ـــ قالت إنك مواطن مصري عادي جدا.. عازب.. ومتبطـــل.. ولا تكاد تجد قوت يومك؟

ـــ دا صحيح!

ـــ وأنك للسبب ده فكرت في الانتحار أكثر من مرة ، وفشلت؟!

ـــ مظبوط !

ـــ ولا ترى أي أمل في المستقبل البعيد؟

ـــ ولا بعد ربع ساعة!!

ـــ للدرجة دي ؟!.. وقالت إنك ضحية مـــن ضـــحايا رئـــيس الحكومة.. وفشل سياساته.. و

ـــ تمام.. تمام.. بس انتوا قلتوا متتكلمش في السياسة.. أصـــدق مين فيكو؟

ـــ صدقني أنا .. أنا المخرج.. أنا "الليدر" والمسئول الأول عن البرنامج ده.. مفهوم؟

ـــ مفهوم.

وبعد ربع ساعة أتته أول مكالمة، فتردد.. لكن المخرج أمـــره بالرد.. فرد:

ـــ صباح الخير يا صفوان.. أنا أمك . فاكرني؟

ـــ صباح الخير يا أمي .. إيه اللي فكرك بيه؟

ـــ شفتك في تليفزيون الجيران قلت أكلمك.. ولا أنت نسيتني؟

ـــ ....!

ـــ وبعدين إيه العز اللي انت فيه ده.. تلاجة مليانـــة، وهـــدوم جديدة، وميه معدنية، أمال بتيجي تشحت مني ليه.. همـــا أدولـــك كام؟

ـــ وبعدين يا أمي.. دا وقته؟

ـــ وقته ونص.. ويكون في علمك بقي.. أنا ليه تُمن الشقة اللي أنت قاعد فيها دي.. آه.. ومن حقي أني أرفع عليك قضية كفالة.. أنا أمك ومن حقي تصرف عليَّ.. و..

ـــ وهو انتو يعنى سيبتولي حاجة عدله قوى.. آهي حتتـــنكس.. وتقع فوق دماغنا مع السلامة يا أمي ..

ـــ وكمان بتقفل السكة في وشي.. اخص عليك آلو.. آلو..

وضع صفوان السماعة وذهب ليعد كوبا مـــن الشـــاي، فـــرن الهاتف من جديد..

ـــ فيه إيه تاني؟.. نعم؟

ـــ آلو.. برنامج أسبوعين من حياة مواطن؟

أدرك صفوان أن المتصل ليس أمه، فتدارك الأمر:

ـــ أيوه .. مين حضرتك؟

ـــ مش مهم مين زفتتي.. بالذمة دا اسمه كلام؟.. أنـــا عمـــرى ما شفت جحود زى كده!!

ـــ حضرتك طالب نمرة كام.

ـــ أيوه ياخويا استهبل استهبل.. مش أنت صفوان عبد المجيد؟

ـــ عبد الفضيل يافندم.

ـ عبد الفضيل ولا عبد الرحيم مش مهم،كلكم عبيد.. المهم أني شفتك في التليفزيون، وسمعت الكلام اللي دار بينك وبين أمك.. وأحب أقولك أنك ولد عاق.. جاحد.. ناكر للجميل.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. عبدون عبدون: السبتية.. القاهرة.

وضع صفوان السماعة متعجباً، وقبل أن يذهب ليعد الشاي رن الهاتف من جديد:

ـ نعم؟! فيه إيه تاني؟!

ـ آلو.. برنامج أسبوعين من حياة مواطن؟.. ممكن أشارك في البرنامج..

ـ أتفضلي أنتي شاركتي بالفعل..

ـ على فكرة حضرتك إنسان جاحد.. ناكر للجميل..

ـ الله .. الله .. وبعدين يا ست انتي.. عيب كده.

ـ عيب إيه؟.. أنت تعرف العيب؟.. حد يكلم أمه بالشكل ده؟ دانت نموذج للفساد.. جاتك نيلة عليك وعلى اللي عمل البرنامج..

وقبل أن تبصق المتصلة في التليفون، كان صفوان قد وضع السماعة وعرض المخرج فاصلاً قصيراً اعتذر خلاله لصفوان عما جرى مبرراً ذلك بـ : "حرية الإعلام الجديد". وأكد أنه سيوقف ذلك حالما تنتهي "الساعة الحرة".

وحين قال إنه لم يتفق على ذلك، طالبه المخرج بأن يقرأ العقد جيداً، وخاصة البند الثاني ـ الفقرة الأولى ـ ثم صاح آمراً: أكشن.. فانتهي الإعلان ورن جرس التليفون:

ـ آلو .. نعم؟

ـ ممكن اشترك معاكم؟

ـ اشتركي ياختي ..

ـ ممكن أسألك.. أنت متجوزتش ليه لحد دلوقت؟

ـ ليه؟ عندك عروسة ليَّ ؟!

ـ أنت ألف واحدة تتمناك يا أستاذ صفوان.. أمور.. ولـون.. وعندك شقة!!

ـ أيوه بس أنا مابفكرشي في الجواز دلوقت؟

ـ عشان ملقتش اللي تفهمك.. اللى تقدر مشـاعرك النبيلـة.. وقلبك الأبيض!

ـ أعتبر ده غزل.. ولا إعلان زواج؟

ـ أعتبره زى ما تعتبره.. أنا من حقي أعلـن عـن نفسـي.. تعرف في مصر كام ألف عانس.. كام ألف أرملـة.. كـام ألـف محرومة، احنا داخلين في نفق يا أستاذ صفوان نفق مظلـم مـش عارفين حيوصلنا لفين.

عرض المخرج إعلانا لمدة دقيقة نصح فيهـا صـفوان بعـدم التمادي مع المشاهدات، فتظاهر صفوان بالموافقة، وهو يتمنـي أن تكون كل المكالمات بهذه الصورة، قبل أن تأتي المكالمة التالية:

ـ آلو.. ممكن أكلم التحفة اللي انتوا جايبينه لحد بيوتنا ده؟

ـ الله.. جرى إيه يا أستاذ.. أنا أعرفك منين ولا تعرفني منين؟

ـ أنا ما يشرفنيش إني أعرفك.. دا مـرد تـرده علـى أمـك يا جاحد.. يا فاشل؟

ـ عيب كده يا أستاذ.

ـ العيب مش عليك.. العيب على تجار الخيش! كـل واحـد عملـه فضائية يقول فيها اللي عايزه.. فين الرقابة .. فين النقابة .. فين الـ..

وما كاد المخرج ينزل بإعلان حتى خلع صفوان المايك ورمـاه على الأرض غاضبا:

ـ أنتم جايبني هنا عشان تهزأوني؟.

ـ معلش يا أستاذ صفوان.. آخر مكالمة وتنتهي "الساعة الحرة" أرجوك..

ـ "دي مش "ساعة حرة".. دي ساعة سودة.. ساعة مسـخرة.. حتى المكالمة الوحيدة اللي فيها الرمق قطعتوها. أنا مـش حـأرد على حد"!!

وهنا اضطر المخرج لاسـتخدام العصـا والجـزرة.. فوعـد وتوعد.. فما كان من صفوان إلا أن يرد على آخر مكالمة وأمـره لله:

ـ آلو..

ـ نعم

ـ من فضلك ممكن أتكلم مع الأستاذ سعدان؟!

ـ النمرة غلط يا أستاذ أنا اسمي صفوان.

ـ متأسف.. متأسف.. أنا الدكتور سـعيد الخربـوطلي أسـتاذ الطب النفسي بجامعة حلوان.

ـ حلوان البلد ولا المحطة؟

ـ في الحقيقة أنا عايز أشـيد بفكـرة البرنـامج.. وبالخدمـة الإعلامية اللي بتقدمها الـ B.W.C صحيح هي مش جديدة، وبنشوفها

في أكثر من فضائية عابرة للقارات وبيسموها تليفزيون الحقيقة — ريالتي. تي. في — لكن النكهة المصرية مدّياها طعم تاني خالص.

— طبعا.. ما هي لازم تديها طعم تاني!

— أنا في الحقيقة مش متابع جيد للتليفزيون.. لكن أتيح لي أني أشوف حوالي ساعتين — Live — من البرنامج. ونفسي يكون فيه تحليل معمق كل كام ساعة، لسلوك وردود أفعال حضرتك بواسطة علماء وخبراء في علم الاجتماع والاقتصاد والنفس والتربية وغيرهم لتقييم وتقويم سلوكك يا أستاذ صفوان!!

— أنا سلوكي معزولة كويس يا دكتور.. الخوف تيجي القفله منكم مش مني!!

— أنا بتكلم جد.. يعني لو سألتني نفسك في إيه دلوقتي.. أقول نفسي أعرف حركة المعدة، وطبيعة الإنزيمات والهرمونات اللي فيها، وأمتي بتزيد أو بتقل، الضغط، وسرعة النبض والترسيب.. فسيولوجيا العقل، وغيرها من الوظائف الحيوية.

— يظهر أن عندكو أزمة في الفيران يا دكتور.

— أنا آسف.. أنا مقصدش أي إهانة لحضرتك.. أنا قصدي بما أننا بنتصارح وبنتكاشف في عصر العلم والتكنولوجيا، ليه مايكونش فيه كاميرا داخلية قدّ الترمسة تـ..

— كاميرا تاني؟.. مش كفاية اللي في الحمام؟ دانا أمي مشفتش جسمي من يوم مافطمتني!!

ـ يا أستاذ صفوان كلنا هذا الرجل.. هو أنـت لوحـدك اللـي بيدخل الحمام؟.. القضية أنك أكثرنا جرأة وشفافية. ورغبـة فـي خدمة العلم.

ـ علم إيه يا دكتور.. احنا حنضحك على بعض؟.. هو أنا لـو كنت لاقي آكل كنت عملت كده؟

ـ ما هو ده اللي ممكن يعمله علم الاجتمـاع.. وعلـم الـنفس الاجتماعي وغيرهم. وبعدين يا سيدي التكنولوجيـا سـهلت لنـا حاجات كثيرة.. وأصبحت المناظير اللي كنا بنتبـاهي بيهـا مـن سنتين بس بقت موضة قديمة. دلوقت نقدر نـزرع كـاميرا فـي كبسولة صغيرة قدّ الترمسة.. تبلعها زى البرشـامة، عمومـا دي فكرة بقدمها لمخرج البرنامج..

وبكرر تحياتي وتقديري للجميع!!

الفصل التاسع

مر اليوم الثاني على صفوان كأنه دهر.. تراكمت فيه الأحداث والتحفظات، وسمع فيه بعض الشتائم والمهاترات، فتصلبت ملامحه عدة مرات، وقبل أن ينام شعر بتغيرات داخلية لم يشعر بها قبلا: اضطرب هضمه، وتوترت أعصابه، وداهمه الصداع والأرق. فتذكر أنه لم يأكل جيدا، ولم ينم ظهرا كما تعود، ولم يدخل الحمام، أو يرى الشارع، ولو أتيح له أن يرى نفسه في عيون الآخرين لتوقف نبضه. إذ لم يعد وحده في شقته، حتى ولو كان ضيوفه الأرازل مجرد كاميرات من حديد!

لكنه استطاع ــ بقدرته القديمة على الصبر والتحمل ــ أن يتكيف بسرعة، ويغير بعض سلوكياته وعاداته الغذائية، فتعلم كيف يأكل بالشوكة والسكينة، ويمسح فمه بمنديل نظيف، ويغسل أسنانه قبل أن ينام. وفي اليوم الثالث، حدث ما حدث في اليوم الثاني.. لكن بحدة أقل واعتياد أكثر.

وفي صباح اليوم الرابع، بدأت ردود الأفعال تأتيه في شكل هدايا عينية، ومنتجات مصرية وعربية: أدوات كهربائية ومنتجات

ألبان، كتب وتذاكر سينما، منظفات صناعية وروائح، موبايلات وتحف ثمينة، سجائر أجنبية ومعلبات، فواكه وبذور، براويز، وألبومات مصاحف وأناجيل، حبوب وبقول، شنط وستائر معدنية، حراير وولاعات، منتجات بحرية ونيلية، سبح وساعات رقمية، بيتزا وهوت دوج، معجنات وسكاكر.. دعوة لزيارة لبنان ومارينا، وأخرى لجزيرة كريت وبادوفا.. ومن رجل أعمال دعوة لزيارة فيلته في شرم الشيخ، ومن سعودي أتته عمرة مجانية، وباقة ورد من ملكة جمال تونس، وكاميرا فيديو من شركة يابانية، ومن فضائية عربية لزيارة قبرص، أو التزلج على جبال لبنان، ومن قناة جنسية تدعوه لزيارة موقعها على الانترنت، ومن فصيل صومالي يدعوه للتبرع بثمن بندقية لقتل خصم، ومن مغترب عربي يدعوه لزيارته في أحراش أفريقيا ، كما تلقى حزمة بخور من كويتي يزور الهند، وباقة ورد من حقوق الإنسان، وكمبيوتر بلا أي مقدمات أو فوائد من شركة خليجية!!

وهكذا اكتشف العاملون بالقناة أن شقة صفوان، وسطح بيته تحول إلى معرض "خبيث" للدعاية والإعلان، فاتصلوا بالمختصين وخبراء الإعلان، فنصحوا صاحب القناة بأن يتسامح مع الهدايا الشخصية المغلقة، وألا يتسامح قط مع أي ابتزاز أو التفاف، وعلى من يريد أن يعلن عن سلعته فعليه أن يدخل من الأبواب الشرعية والمشروعة، وأن يتخذ كل الإجراءات المالية والقانونية الواجبة، وأكدوا على ضرورة أن يصادر كل الهدايا التي تحمل علامة تجارية واضحة، أو مضمرة.

يستشف من خلالها أي دعاية مجانية لأي شـركة أو مسـئول حزبي أو عقائدي، وأن يتساهل مع الهدايا الصغيرة طالمـا كانـت داخل مظروف، أو طرد، أو جوال غيـر ممهـور بـأي علامـة تجارية. ولما تأكد مدير الإنتـاج أن صـفوان لا يملـك غسـالة ولا تليفزيون ولا مكنسة كهربائية تـرك لـه ذلـك بعـد أن أزال علاماتها التجارية، واضطر أيضا أن يزيل علامة شركة كوكاكولا ويضع علامة "بيبسى" التي تعاقدوا معها بـالأمس، ولـم تصـلهم منتجاتها بعد، ليشربها صفوان ــ باسـتمتاع ــ أمـام المشـاهدين ويسكب الباقي على رأسه !!

كان صفوان قد طلب أن ينزل إلى وسط المدينة مثلما كان يفعل كل يوم، فأرسل له المخرج كاميرا لترافقه إلى هناك.. وفي حارته التي لم يرها منذ ثلاثـة أيـام، لاحـظ أن النـاس تشـير إليـه وتتهامس، ووجد البقال الذي لم يشـتر منـه شـيئا منـذ مـات أبوه، يصافحه بحرارة، ويطلب أن يتصـور معـه، وهـو ينظـر للكاميرا صائحاً:

ــ أبوه كان صاحبي.. الله يرحمه!!

وعلى الناصية سمع النساء تزغـرد، والأطفـال يصـافحونه ويرسمون بأصابعهم علامات النصـر، كاشـفين عـن أسـنانهم المتسخة، وعيونهم الذابلة.

في البداية لم يستوعب الأمر كما يجب، فلـم يـر نفسـه فـي التليفزيون أبداً، ولا يعرف كيف يمكن ذلك. كل مـا يعرفـه أنـه

التحق بعمل، وعليه أن يؤديه.. أما أن يكتسب شهرة أو جاها، فلم يفكر في ذلك أو يتوقعه.

لكنه ما كاد يصل إلي شوارع وميادين وسط البلد، حتى رأى وعرف كل شيء.. ففي أحد محلات الأجهزة الضخمة التي كان يتصعلك أمامها ولا يجرؤ على دخولها قبل أسبوع، رأي نفسه يتحرك في عشرات التليفزيونات المعروضة للبيع.. فظن أنها مجرد دائرة تليفزيونية مغلقة، لكن الأمر اختلف حين رأى المدير والبائعات الجميلات يدعونه للدخول فدخل، وتأكد مما لم يكن يتوقعه، ولاحظ أن البنات يصافحنه ويحاولن أن يبقين أيديهن في يديه لأطول فترة ممكنة، وهن يتفرجن على أنفسهن في عشرات الأجهزة المعروضة عبر الفاترينات المصقولة.. وقبل أن يستجيب لدعوة المدير على "التفضل" بشرب القهوة في مكتبه، سمع المخرج يصيح عبر سماعة الأذن اللاسلكية ويحذره من ذلك، ويطلب من المصورين أن يكثروا من لقطات الزوم على الوجوه، مخافة أن يظن صاحب القناة أنها دعاية مجانية للمحل، وفي "الأمريكين" طلب "مكرونة بالبشاميل" لأنها أرخص وجبة يقدمها المحل، لكنه فوجئ بالنادلات الفاتنات يملأن طاولته بالجمبري، والحمام المحشي بالمكسرات، وسلطات المايونيز والكافيار، واللحم البارد والنبيذ، وعدة أطباق أخرى لا يعرف اسمها، تُوضع على الطاولة، وقبل أن يذكرهن بما طلب، فوجئ بالمدير يصيح مرحبا ويأخذه في حضنه، قبل أن يقدم نفسه للمشاهدين، فيما كان صفوان يحاول أن يفهِّمه أنه لم يطلب كل هذه المأكولات ..

لقد طلب شيئاً واحدا ومحددا يستطيع أن يدفع ثمنه، وسبق له أن أكله هنا حين باع ملابس أبيه وأغراضه القديمة لبائعٍ متجول.

لكن المدير أقسم بحسم قاطع، وعزيمة لا تلين ألا يقبل مليمـــا.. وأكد أنه: لشرف كبير للمحـــل، ولصـــاحب المحـــل، أن يـــزوره "صفوان بيك".. أمير الأمراء، ونصير السياحة العـــابرة، وأشـــهر المشاهير، ثم طلب منه ــ بحياء بنت بكر ــ أن يتكـــرم ويصـــعد للدور الثاني حالما ينتهي من غدائه، حتى يتناول ما يطيب له مـــن مشروبات وحلويات وفواكه مستوردة على حساب المحـــل.. فمـــا كان من صفوان إلا أن نزع السماعة من أذنـــه حتـــى لا يســـمع صراخ المخرج، وانقض على الأكل وكأنه يأكل لأول مـــرة فـــي حياته، وفي صحوة لا تحدث كثيراً في مثل هذه الحـــالات، تـــذكر المصورين فطلب أن يأكلوا معه، بل قام بنفسه ونزع الســـماعات عن آذانهم.. متحملا كل النتائج . وفيما كانوا يأكلون ويشـــربون، كانت لعنات المخرج تتناهي عبر السماعات البعيدة.

ــ يا مفاجيع يا ولاد الكلب.. والله لأحولكم كلكم للتحقيق.. حط السماعات يا حمار أنت وهو .. خربتوا بيتي الله يخرب بيوتكم!!

فيما كان صاحب المحل يهدي لكل فرد من أفراد الطـــاقم لفـــة كبيرة، عليها اسم المحل واضحا وضوح الشمس، وكأنـــه يـــوزع ميداليات أولمبية على المتفرجين! ولكي يرفع من نســـبة الضـــغط والسكر لدي العاملين في الكنترول، ولدي صـــاحب القنـــاة، ظـــل يصافح كل واحد وهو يهديه هديته، ويمهرها ببسمة تجارية لكاميرا البرنامج، وقبلة عريضة للأهل والأصدقاء!!

الفصل العاشر

اجتمع رئيس القناة ــ لأول مرة ــ بطاقم التصوير الخـــارجي الذي رافق صفوان إلى وسط البلد.. وظل يـــتكلم ســـاعة دون أن يسمح لأحد بالرد أو الاعتراض.. وبعد أن تنـــاول كـــل حبـــوب الضغط والسكر، هددهم ــ فردًا فـــردًا ــ بالرفـــت والطـــرد، إن كرروها.. قال أنه يخسر "دم قلبه"، ويتعرض كـــل يـــوم للحـــبس والاغتيال من أجل شرف المهنة، وأنـــتم "تلغـــون"، و"تظلطـــون" و"تهبرون"، و"تشفطون" في وسط البلد، وأين؟.. في محـــلات: إن دخلتها لتصافح صديقك وخرجت، لابد أن تكون وارثا محـــدثا، أو لصا محترفاً، فما بالك بست حناطير يهجمون على أصـــناف مـــن الحلويات، والمشويات، والمقليات، والأيس كريمـــات، والمـــزات، والمشروبات أراهن إن كان وزير الصناعة نفسه يعرف أسماءها.. وهل هي من المطبخ الصيني أم النرويجي الهندي أم الأمريكـــي، الإيطالي أم الياباني؟ قال:

" لقد فكرت أكثر من مرة في بيع هذه القناة المشؤومة، أو عرضـــها للاكتتاب العام، بل وتمنيت أن يحرقها إرهابيون، أو تقع عليها طـــائرة ركاب أمريكية، أو حتى فرنسية، لأستريح وأعود لتجارة الخشب، لكنـــي تذكرتكم وتذكرت بيوتكم التي ستخرب، وأولادكم الذين سيشردون..قلـــت يا ولد: إن كنت قد عصيت الله عدة مرات، "وزودتها حبتين" في شـــبابك، فليكن هؤلاء المساكين فرساتك إلى الجنة أو حبلك في النار"!!

ثم أقسم بجد جدوده أنه لا ينام مثلما ينام كل البشر.. وإن نـــام: تفزعه الكوابيس، وكثيرا ما يرى جسده جيفة بين ضباع وكواســـر لا تعرف الشبع.. مع أنه لا ينتج دراما حتى يخـــاف الرقابـــة، ولا يبتز الضيوف، رغم أن بعضهم يكاد يعلن عن بضاعته بفجاجة من يبيع النفتالين في الباصات، ويدقق في اختيار المـــذيعين وبـــرامج الهواء حتى لا يرن التليفون البرتقالي، ثم تساءل:

ــ "هل أدّعي النبوة وأنكر أنني تـــاجر؟.. وإن مصـــلحتي تســـبق وعيي؟ لتذهب "الخدمة الإعلامية" إلى الجحيم.. أعلّم من؟ ولماذا؟ وما دور الحكومة ومؤسسات الحكومة؟ أنـــا لســـت "بابـــا نويـــل" لأوزع هداياي على البؤساء، ولولا المنافسة التي لا ترحم لعرضـــت أتفـــه البرامج، واستوردت أرخص الأفلام ونافقت كل الناس"!!

وما كاد أحد المصورين يرفع يده ليدافع أو يشرح، حتى صـــاح المدير محتدا وكاد يرمي بمطفئة السجائر في وجهـــه، ثـــم نعـــت الجميع بالتنطع والتواكل، قبل أن يؤكد أن:

ــ هناك التزامات لابد أن تُدفع، أجـــور ومرتبـــات لمـــوظفين وموظفات.. مشاكل يومية مع المرور، والبلديات، غرامات تـــأخير

وتمويل، وتخزين، قضايا مرفوعة في عشرات المحاكم المصرية والعربية ضد برامج أو مذيعين، من محامين متفرغين، يبحثون عن الأضواء، بعد أن زادت أعدادهم، وقل رزقهم.

تعويضات لعاملين تضرروا، أو أصيبوا أثناء عملهم، محاضر تصوير خارجي بدون إذن، استدعاءات لمحاكم ومديريات أمن تهديدات مضمرة ومعلنة من جماعات متطرفة، اتهامات خارجية بالعمالة والتجسس، شتائم وسباب، واتهامات بالعنصرية من بعض الدول الشقيقة.. مشاكل مع شركات الإنتاج والتوزيع، قضايا محجوزة للحكم من فنانات ومطربات لأضرار مادية أو معنوية! أحكام لتثبيت بعض المراسلين، وإعادة بعضهم الآخر، رشاوى مقنعة ومغلفة بالسكر لوسطاء ومستشارين لا نعرف فيما نستشيرهم، أو متى نحتمي بهم، فضائيات تنافسنا في السماوات والأرض و "أنتم نايمين في العسل، ولو تأخر مرتبكم يوم تفضحونا في الصحف والمجلات مش كده وبس.. لا .. ورايحين تلغوا وتمزمزوا وتظلطوا في أغلى محلات وسط البلد!! محلات ــ أنا يا صاحب المحطة ــ أخاف أدخلها!.. كفاية البنات اللي فيها .. وجمال البنات اللي فيها..

آخر مرة دخلت البن البرازيلي كان من سبع سنين، دفعت عشرة جنيه في فنجان قهوة شربته وأنا واقف ، ولما رجعت البيت كنت عايز أطلق مراتي. فما بالك بالأمريكين والماكدونالدز والاكسلسيور والويمبي والهوت دوجز. وهلم جرا..

أنا حاكتفي المرة دي بالخصم.. لكن قسما عظما.. لأدخلكم في دوامات، ما حد فيكم يعرف فيها رأسه من فاسه.. ولا فائلته من لباسه .. رفعت الجلسة!!

الفصل الحادي عشر

لم يعرف أحد ـــ ولا صاحب القنـــاة نفســـه ـــ لمـــاذا اســـتثني صفوان من الخصم، واكتفي بتعهد كتابي بعدم تكرار ما حـــدث.. لكن الرسالة وصلت، وهذا ما كان يهمه، والمثل يقـــول "اضــــرب المربوط يخاف صفوان عبد الفضيل ومن والاه"!

كانت القناة قد بدأت تنتعش بالفعل، وتقف على قدميها في ظـــل منافسة لا ترحم ، وهو ما يعني لكل ذي عينين وعقـــل تجـــاري: زيادة الموارد وتطوير الخدمات وتوفير الحوافز والمكافآت، حتـــى لدي من يتعامل مع مشروعاته كما يتعامل "العربجي" مع حصانه.. من مصلحته أن يطعمه لكي يأتي له بالمزيد، لذلك استعان بـــرأي الخبراء والنصحاء، والمنشقين على الفضائيات الغريمـــة، ورمـــي بكل أوراقه، كما يرمي الصياد الماهر بآخر طعم لديـــه، فانهالـــت الإعلانات والتوكيلات من شتي أرجاء العالم العربي وبلاد المهجر البعيد، بعد أن دخلت القناة إلى البيوت.. وزاد الإقبال على مواقعها

بشبكة الانترنت، وباتت مصدراً موثوقاً لدي وكالات الأنباء والصحف، وشركات السياحة والإعلان.

وأصبح اسم "صفوان" يتردد في كل مكان، بعد أن تحول شيئا فشيئا من مجرد "رجل عادي" يبحث عن وظيفة، إلى بطل قومي ورمز لكل المقهورين، والمقموعين، والمتبطلين في العالم، وبات من الوفاء للقيم النبيلة ومسايرة للموضة والعصر، أن تسمي آلاف المواليد باسم صفوان.. قبل أن ينتقل الاسم ومشتقاته إلى المحلات وأسماء الشوارع، وشركات الصرافة والتوكيلات والمصايف:

صفوان للاستيراد والتصدير، صفوان للملابس الجاهزة الصفوان للحج والعمرة، شارع صفوان — أنور السادات سابقا — فندق صفوان باللاذقية.. صفوان للمعجنات والسكاكر، سد صفوان البحري — النيل الأزرق سابقا — صفوان للرخام والجرانيت جمعية الصفوان للأعمال الخيرية، أسماك ورخويات صفوان، صفوان للغسالات والحمامات، ستالايت صفوان، صفوان لتشغيل الأيدي العاملة، صفوان للخدمات العقارية، زوروا موقع صفوان على الانترنت، الصفوان للزجاج والبراويز، صيدلية صفوان. رزنامة الصفوان، براغي وشراشف الصفوان، برج الصفوان المعدول — بيزا سابقا — الصفوانية لتصدير الأيدي العاملة.

ثم زاد الإقبال والتعاطف مع أول اتصال لصفوان مع المشاهدين.. إذ يبدو أنه لمس ذلك العصب الغامض في كل

البشر.. ذلك الخيط الرهيف المشترك الذي راوغ العلماء والفقهاء واستعصى على الخبراء والمدراء!!

كانوا قد نصحوه بالعموميات، والبعد عن الأقانيم الثلاثة، لكنه فتح كل الملفات، ولمس بالفطرة ــ أو بقوة الكبت والدفع الذاتي ــ كل الكوامن والكوابح.. فتكلم عن طفولته، وكيف حرم من أبسط الحقوق: حرم من عطف الأب، وحنان الأم، وصدر الأصدقاء وتعاطف الصديقات ، فلم يلعب ، ولم يغامر، ولم يطمئن، ولم يفرح، ولم يعش طفولته أو صباه.

بحث عن حلول ومخارج ، لكن الإخفاق كان يلازمه، كما يلازم الظل صاحبه، أين يكمن الخلل إذن؟ أين خرائط الأمل والسعادة؟ وما قيمة أن يعيش المرء وحيداً في هذا العالم الصاخب الصامت؟.. لا ابن يذكره، أو هدف يسعى إليه؟

ظلام دامس، فراغ لا حد لامتداده.. شموع تخبو كل يوم في حنايا الذاكرة.. وعلى سطحها القريب أولاد يضربونه، وكلاب صغيرة تطارده في الحواري، فيرمي كراريسه ويسعى نحو أمه فلا يدركها.. فئران تنام تحت وسادته.. ذباب لا يقف إلاّ على وجهه .. مراهقات يسخرن من بنطاله المفتوق وحذائه المثقوب.. وظائف ينالها من لا يريدها.. صديقة تتركه إلى عجوزٍ غني كوابيس تداهمه إن استراح لحظة، آمال وطموحات يدوسها الكبار بأقدامهم الثقيلة، وعيونهم الشاخصة الصقيلة.. لم يبق ــ إذن ــ إلاّ

الهشيم.. إلا القبض على كرامته كما يقبض الصقر على فريسته فهو لم يضرب عن الزواج تبتلا، أو حباً في العزوبية، ولم يعرض عن الدنيا حبا في الفقر، أو رغبة في الزهد.. وإنما يأسا من الأمل، وخوفا من المجهول، وما يتعسه ويشقيه أنه يعرف النهاية.. يعرف تلك النقطة الأخيرة التي يتوجب عليه أن يصل إليها.. بلا أي جائزة أو بطولة أو معني أو أثر.. وعند هذه النقطة داهمته الدموع، وكأنه لم يبك في حياته، وكأنه يريد أن يتطهر من صمته الطويل، المرير، يتطهر ممن خانوه، وخدعوه، وتركوه وحيداً بلا أي وتد يربطه بالدنيا، أو رصيد من أمل.. أو رغبة في الحياة. وأمام الكاميرا قال للمشاهدين:

ـ أنا فكرت أبيع كليتي... فكرت أبيع عيني.. لكن ما فكرتش أسرق، أو أخون، أو أكون غير ما كنت..

رحت أبيع دمي في معهد السرطان.. وقفت في طابور مش ممكن تشوف أخره إلا بطيارة هليوكبتر ، شميت روايح لا تحتمل وشفتهم وهُمّا بيمدوا دراعاتهم من طاقة ضلمة لممرض تخين.. وقبل دوري بنفرين قال لنا: "تعالوا بكره"!!

ـ يا عم خلصنا.. احنا ما صدقنا وصلنا.. احنا هنا من الفجر!!

ـ بص في الساعة يا روح أمك.. صايع أنا زيك؟ مليش بيت؟!

تاني يوم رحت المدبح.. وفضلت أشيل في لحوم، وأغسل في مصارين، لحد ماطرشت مصاريني، وفي الآخر أدوني شوية

شغت.. رحت أغسل إيدي.. كلتهم القطط، بعت دهب أمي ورحت الخليج، وفي جمرك الرطبة قالوا لي جاي ليش يا مصري؟ قلــت مش عارف.. فتشوني وقالوا: وين شنطتك؟ قلت في بيتنا .

قالوا: ما عندنا سياحة ولا فلاحة . تشرب بترول؟

قلت : أشرب.

قالوا: أدخل ولما ترجع ما تخبي شيء في تكــة ســروالك، ولا في جواربك.. ولا في ...

قلت حاضر.

وبعد ست شهور رجعت مديون، ومهزوم.

ـ وين أغراضك يا فرعون؟..

قلت : سرقوها الهنود والسنود.

قالوا : الحمد لله.. غادر!

فغادرت!!

الفصل الثاني عشر

لم يتوقع أحد أن يأتي رد فعل المشاهدين على اعترافات صفوان بكل هذه الحدة والانتشار، حتى صفوان نفسه لم يتوقع ذلك... فقد حكاه مرة لزميلٍ كان يشاركه الغرفة في الملاحات فتركه ونام، وتهامس به مع نوال فلم تحفل به، بل صارحته بأن حياتها أكثر ميلودراما، وصارح به رفيقا عربيا ـ ذات ليلة ـ فقال: كلنا ذلك الرجل!!

فماذا حدث بالضبط.. هل الناس هي التي تغيرت، أم هو الذي تغير؟.. ولماذا تكون نكتة الغني دائما مضحكة؟ أهو امتداد للفقر والمعاناة، أم غياب للعدل والمنطق؟!

أسئلة لا يستطيع أن ينكرها أو يثبتها أحد.. ولكن أن تصل الأمور إلى هذه الدرجة من الحدة والشدة، فذا ما يستوجب الحيرة.. فما إن توقف صفوان عن الكلام حتى انهالت المكالمات والاتصالات عبر كل الهواتف، والرسائل الالكترونية، ولم تسلم تليفونات مدير القناة، ولا المخازن، ولا الأمن الصناعي ولا العلاقات والاتصالات، من الرنين والضجيج.. حتى الموبايلات الشخصية لحرس المبني، وعمال الديكور والمهنيين، وحينذاك وجد

صاحب القناة أن الموضوع قد "دخل في الجد"، وأن بعض الوزراء اتصلوا به عبر الخط الأحمر، وشد بعضهم على يده، وأبدى الآخرون تخوفهم من تأليب الرأي العام ضد الحكومة، أو إثارة كل المحبطين والمتبطلين ـــ وما أكثرهم ـــ في العالم العربي!

وكانوا على حق، ففي صباح اليوم التالي، تصدرت قضية صفوان صفحات صحف المعارضة قبل أن تنتقل إلى الصحف العربية وشبكات الانترنت. واضطرت الصحف القومية أن تشير إلى ذلك في صفحاتها الداخلية ولو من باب إبراء الذمة!

وما أثار دهشة المراقبين ـــ والمسئولين الأمنيين ـــ هو خروج عشرات المظاهرات والمسيرات الكبرى إلى شوارع العواصم العربية وبلاد المهجر. فهل آن للشعب أن يقول كلمته؟ هل آن "للرجل العادي" أن يصل "للرجل العادي"؟ هذا ما كتبته الصحف والمجلات على صدر صفحاتها الملونة، فانهالت ثرثرات النخب، وتعليقات النخب، وتناقضات النخب.. وتنبأت صحيفة قومية بعصر الرجل العادي.. بعد انحسار دور السلاطين وأنصاف الآلهة، وتقوقع الأرستقراطية على مصالحها، وبات على من يراهن على المستقبل القريب أن يعرف أنه يراهن على حصان نزق!!

لذلك حاول المخرج ـــ بإيعاز من مدير القناة ـــ أن يقنع صفوان ببلع كاميرا في حجم حبة البازلاء ، حتى تكتمل الدائرة، ويعرف الناس ما يدور في الداخل والخارج معا .. فرفض صفوان مرات ومرات ، وحين أقنعه المخرج ، بحيله التي لا تنتهي، رأي صفوان ما في معدته فكاد يتقيأ.. فعبر "مونتور"

صغير مع المخرج رأي صفوان معدته ملأى بالنفايـــات اللزجـــة والانقباضات الدائبة، فأغمض عينيه قرفا وامتعاضا، ولم ينقذه من التقيؤ، سوى رنين التليفون:

ــ ألوه .. واد يا صفوان

ــ مين اللي بيتكلم؟

ــ وكمان مش عارفني.. مش عارف أمك يا قليـــل الأصــــل.. يا ناكر الجميل؟!

ــ عيب يامه كده.. الناس سمعانا .. وكفايا اللي حصل المـــرة اللي فاتت!!

ــ وهو أنا متصلة بيك إلا عشان كده.. طب لما أنـــت عـــارف الناس الكبارات دول كلهم، ما تخليهم يعالجوا ركبة أمك يا جاحـــد ولا أنت زى اللبلاب...

ــ مالها ركبتك يامه؟

ــ مالها ركبتي؟.. وأنت من إمتي كنت بتســـأل علـــى ركبتـــي ولا على حياتي؟ متكلم الوزير يجيب لي مرهم ولا حاجة.. أنـــت مش عارف إن ركبتي مجزوعة؟!

ــ وأعرف منين يامه.. ماهو لو كان ليكي موقع على الانترنت كنت عرفت!

ــ وكمان بتتريق يا ابن عبد الفضيل؟!

ــ من غلبي يامه.. من غلبي.

ــ وأنت إيه اللي مغلبك يا روح أمك.. عايش أحسن عيشـــة.. وبتاكل حاجات عمري ما سمعت عنها.. ولو كان أبـــوك عرفهـــا مكانشي مات!

ـ طب إيه اللي يرضيكِ يا أمي؟ أأمريني.. أنا تحت أمرك.

ـ أبعت لي حتة قماشة حلوة.. وشوية لحمة من اللـــي عنـــدك دي.. جايز ركبي تخف شوية!

ـ حاضر يامه.. أي خدمات تاني؟ مع السلامة..

وضع صفوان السماعة، وهو يحـــاول أن يخفـــي رد فعلـــه ليبـــدو متماسكا فلايكرر ما سبق. وما هي إلاَّ دقائق حتى جاء الاتصال التالي.

ـ ألو.. أيوه يا صفوان بيه، أنا سعفان التايه عضـــو مجلـــس الشعب.

ـ شعب مين حضرتك؟..

ـ شعب مين؟.. شعب مصر يا ابني.. أنا نازل إن شاء الله عن دايرة إمبابة ، عمال، ورمزي هو القفل.. ويشـــرفني أنـــي أنـــول صوتك الأسبوع القادم إن شاء الله!

ـ أيوه.. بس أنا مش ساكن في إمبابة... وبعـــدين ماعنـــديش بطاقة انتخابية!!

ـ مانا عارف يا ابني انك ساكن في عابدين. لكن اطمئن.. كل دي حاجات بسيطة.

ـ و............. !!

ـ ماتشغلش بالك.. كل دي تفاصيل هايفة.. وبطاقة الانتخـــاب حتاخدها إن شاء الله وأنت واقف.. نفسي أخدمك يا أخي .. بـــس أنت سيبك من الفئات.. ومقالب الفئـــات.. وخـــش علـــى العمـــال والفلاحين.. وربنا يسهل، خلاص يا صفوان.. متنســـاش. ســـلامو عليكم..

وما كاد يضع السماعة، حتى سـمع المخـرج يصـرخ أثنـاء الفاصل ويندب حظه العاثر.. وبعد أن هدأ قليلا، عرف أنه شارك في بث إعلان مجاني، ومخالف للقانون والدسـتور ، وأن رئـيس المحطة سيفصله، وربّما يسجنه أو يوقف راتبه ورزق أولاده!!

ولم يسكته سوى رنين جديد، فرد صفوان:

ـ يارب متكونشي أمي.. نعم.. آلو.

ـ سلامو عليكم

ـ وعليكم السلام.

ـ والله أنا سمعت الـ chating بتاع الست والدتك، وشـايف أن بعض الناس بيحسدوك، رغم أنك معندكش تكييف كـويس، وأنـا بصراحة مش قادر أفهم حتى الآن ليه ميكونشي فيه تكييف في كل بيت مصري؟.. احنا بلد صحراوي وعندنا تسع شهور حر و..

ـ طب أتشرف الأول باسم حضرتك.

ـ أنا عاصم النحلاوى مدير مبيعـات شـركة C.W.B لأجهـزة التكييف، والوكيل الوحيد والأخير لمنتجات شـركة K.L.S العالميـة وبيشرفنا إن حضرتك تتكرم وتقبل جهـاز اسـبليت مـن أحـدث منتجات الشركة هدية، ولو وافقت حضرتك، بكره الصبح حتلاقيه متركب.. وعال العال...

ـ يا سلام.. عمار يا مصر.. لسه فيه ناس هبله كده.. قصـدي على نياتها كده؟.. تصدق بإيه يا أستاذ؟

ـ لا إله إلا الله.

– أنا أول مرة في البرنامج ده أشوف حد بيقدم خدمة لوجه الله... روح يا شيخ.. ربنا يكتر من أمثالك.. ويخليك الوكيل الوحيد لكل الشركات!!

– العفو يا أستاذ صفوان دا أنت مثل، وقدوة، بس لي رجاء!!

– إيه حتطلب مقدم .. ولا غيرت رأيك؟

– لا .. أنا بأمثل شركة محترمة يا أستاذ .. كل رجائي إن العمال والفنيين اللي جايين يركبولك الجهاز بكره إن شاء الله مايخدوش مليم.. احنا مانعين البقشيش، احنا شركة محترمة.. ووكلاء لشركة محترمة.. باي باي..

وقبل أن يفيق صفوان من الصدمة، جاءته المكالمة الأخيرة:

– آلو ..

– نعم

– بطلنا القومي.. وتاج راسنا.. الأستاذ صفوان عبد الفضيل؟

– أفندم

– احنا مكتب الأستاذ / ربيع مفتاح المحامي بالنقض ومحاكم أمن الدولة!

– ربنا يكفينا شركم.. نعم.

– احنا مكتبنا في شارع 26 يوليو فوق سينما ريفولي على طول، الدور الثاني!

– إن شاء الله الإرهابيين حيفجروه.. قول.

– شوف يا مولانا.. الأستاذ ربيع كلفنا أنا الأستاذ / عادل سليمان المحامي.. وزميلي الأستاذ ، مظلوم عبد الراضي المحامي

برفع قضية مستعجلة ــ على حساب المكتب طبعا ــ ضد كل من أهانك باعتبارك رمز وطني.. وثروة قومية.. و..

ــ طب ومستعجلين ليه؟

ــ ما هي لازم تكون مستعجلة يا أستاذنا.. ويكون في علم حضرتك.. حنختار أشيك وأوسع محكمة فيكي يا مصر. كل المطلوب من حضرتك شوية بيانات . معاك الأستاذ ربيع ، أتفضل يا أستاذ ربيع..

ــ ربيع إيه في الحر ده؟..

ــ السلام عليكم يا بركتنا.. أنا أخوكم في الإسلام الأستاذ / ربيع مفتاح المحامي بالنقض وكافة شيء..

ــ نعم .

ــ نعم الله عليك .. عامل إيه يا نصير المظلومين.. يا فخر كل المحامين.. يا منقذ الأيتام والمساكين، يا ... بقول لحضرتك إيه.. تسمح لي أقول قصيدة؟

ــ لا .

ــ طب معاك الأستاذ / مظلوم عبد الراضي!!

ــ أقطع دراعي إن ما كانوا عصابة!

ــ سلاموا عليكم يا فخر كل المصريين.. يا زعيم كل الـ ..

ــ خش في الموضوع يا أستاذ .. مين اللي ظلمك؟

ــ ما شاء الله.. دا مش ذكاء وبس .. لا .. ده ذكاء وخفة دم كمان... طب بقول لحضرتك إيه؟..

ــ قول .

ـ كنا ناويين نرفع جنحة مباشرة على الـدكتور اللـي شـجع حضرتك على بيع كليتك.. وعلى الجـزار الجشـع اللـي شـغل حضرتك وضحك عليك.. وعلى الموظف العراقي اللي شتمك فـي الجمرك وقال لك يا فرعون!! وإن أمكن نعـرف اسـم الحرامـي الهندي اللي سرق أغراضك.. وعكر مزاجك!!

ـ أيوه.. بس أنت عرفت التفاصيل دي منين؟

ـ أنت مش قلت الكلام ده على الهوا يا أستاذ؟.. ودا يعتبر في حد ذاته بلاغ ـ وتوكيل رسمي ـ لمن يهمه الأمر!!

ـ يا أستاذ أنا مقلتش حد حرضني أو شجعني على بيع كليتي.. أنا قلت فكرت.. عارف يعني إيه فكرت؟ تاني حاجة أنا مقلتش أن الجزار ضحك عليّ ، أنا قلت إنه اداني شوية شغت، وعبـال مـا غسلت راسي ورجعت، لقيت القطط أكلتهم. تحب ترفـع دعـوى على القطط؟! أما بالنسبة للحرامي الهندي فأنصحك ـ بمـا أنـك فاضي، وجاي تكلمني عن حاجات فات عليها ربع قـرن ـ أنـك تختصر الوقت وترفع دعوة على رئيس الهنـد شخصـيا.. ولمـا تحبسه هايجيب لك الحرامي غصب عنه من تحت الأرض!!

ـ فكرة عبقرية.. معاك اسمه وعنوانه؟

ـ لا .. إنت بس تروح الهند وتسأل.. وبالمرة فيه هناك نـوع من اللب للناس الفاضية.. يادوب تقدر تقزقز تـلات حبـات فـي اليوم.. هاتلك خمسة ستة كيلو ..

وربنا يسهل.

الفصل الثالث عشر

في قاعة اجتماعات بفندق كبير اجتمع "رهط" من الخبراء والإعلاميين لمناقشة ظاهرة القنوات الحرة، آخذين من "ظاهرة صفوان" نموذجا على تشكيل الرأي العام، وتغيير اتجاهاته . وكان المطلوب: "تدبيج" تقرير جامع مانع يكون تحت يد صانع القرار.

قال أكبرهم سنا : دعونا نضع الأمر في نصابه. ففي طفولتنا الباكرة، كنا نتجمّع "كالكتاكيت البردانة" في حديقة عامة لنرى "التليفزيون" وهو يرمي علينا بصور الحروب، ولقاءات الضباط. وكلما ضج أحدنا، أو خالف النظام، كان الموظف المسئول يصعد على سلم ليطفئ "التلفزيون" حتى نتعلم الأدب ونعرف فضل الحكومة وسلطة الحكومة!..

ولا يفتحه إلا بعد شفاعات، ومعاهدات وأيمانات! وفي لقطة لا تنسى:

أراد أحدنا ـــ من فرط الحماسة ـــ أن يصافح عبد الناصر شخصياً وهو يخوض طريقه بين الجموع، فأخذ مقعداً، وتسلل

خلف الجهاز الغريب، ولا نعرف ماذا فعل، لكننا سمعناه، يصرخ صرخة الموت، والكهرباء تنقطع!!

لم يكن التليفزيون متاحا حتى للأغنياء، كما لم يكن الراديو موجوداً إلا في قصر عبود باشا، وأبو رجيلة باشا، والخواجة صيدناوى وغيرهم، إذ كان يحتاج لخدم تحمله، وحشم تشغله، وحرس يحميه !!

كان يبث قناة واحدة لمدة ساعتين، بالأبيض والأسود وفي أحيان كثيرة بالأسود والأسود!!

أما الآن فيستطيع أي فلاح أو عامل بسيط أن يرى العالم بضغطه على "ريموت كنترول"!

وقال أكثرهم شبابا :

ــ لنكف ــ إذن ــ عن التغني بالسيادة الإعلامية، فنحن في سباق مع الزمن، ولم نعد نملك إلا أن نكون جزءاً من هذه القرية الكبيرة.. وفرعا من إشاراتها العابرة. وإن كان لنا أن "نجابه" و"نقاوم" و"نتصدى"، فلنجابه التخلف، ولنقاوم التبعية، ولنتصد للخمول والتواكل!!

وقال أرجحهم عقلا وحكمة :

ــ أنا شفت الولد اللي اسمه عطوان أو صفوان في B.W.C. ولو سألتوني عن رأيي للتك إنه أصدق الكذابين .

مهم يا جماعة إن المشاهد يشارك في اللعبة.. ويشوف نفسه في مرآة الآخرين، خصوصا الرجل العادي.. لازم تُسكت فيه نوازع السخط والعدوان، وتُشعِره إن فيه أمل.. وإن "الدور عليه"! ويمكن

دا يكون سر من أسرار "الأغنية الشبابية" إن النـــاس تقــف مـــع المطرب، وتغني معاه، أو ترد عليه، وهو يحرص على أن يقــدم الميكرفون وينزل وسطهم في عملية تمسرح وتطهر. وبـــاي بـــاي لعصر المنابر والمواعظ!!

وقال آخر :

مين كان يتخيل إن لاعب كرة ربّما لا يجيد القــراءة والكتابـــة ويعيش في قرية أرجنتينية نائية، يصبح أكثر شهرة مـــن غانـــدي وجيفارا، لمجرد أنه ــ في مرة من المرات ــ "شاط الكورة برجله فدخلت جول"؟! أو مطرب لم يقرأ كتابا في حياته، يتجاوز القارات بأغنية أو إشاعة بثتها فضائية من الفضائيات؟!

ــ إنها من علامات القيامة يا أستاذ.. اللهم أكثر مـــن أمثالــك يا صفوان.

هكذا صاح أحدهم فتركوه يخطب، ووقعوا على تقرير، أوصوا فيه بعكس ما قالوه!!

الفصل الرابع عشر

كان صفوان قد بدأ يمل هذه اللعبة الغبية، التي غيرت تكوينـــه الكيميائي فبدأ يضايقهم، ويحاول أن يبتعد عن القـــاهرة فقـــرر أن يسافر إلى الفيوم، علّهم ينهون عقده، لكنهم لم يفعلوا، ففي الصباح اضطرت إدارة الإنتاج أن ترسل عربة البث الخارجي لترافقه إلى الفيوم.. لكن صفوان رفض أن يركبها.. وقال إنه كان يسافر فـــي سيارات أجرة عادية، مع مسافرين عاديين، بعضهم يحمل قفـــص فراخ فارغ بعد أن باع ما فيه، وبعضهم الآخر قادم لتوه من سجن القناطر، أو قصر العيني، أو معهد من المعاهد العلاجية.

حاول المخرج ــ بما له من رصيد في قلـــب صـــفوان ــ أن يقنعه بأنه سيبث على الهواء، مثلما يبث مباراة في كرة القـــدم، ولا يمكن أن يذهب في هذا الجو الخانق، والبعد الشاسع بدون عربـــة بث مجهزة ، وطاقم فني على أعلـــى مســـتوى، ومتابعـــة أمنيـــة ترافقنا، وتسلمنا لغيرها.

ولكي يحسم الأمر أشار إلى الدش المتحـرك فـوق السـيارة المكيفة، وإلى أجهزة البث والمونتاج والصوت والاتصالات فأدرك صفوان أنه على حق، وأنه لكي يجهز سيارة عاديـة بكـل هـذه المعدات والآليات فلن يكون ذلك قبل شهر أو شهرين.. لكنـه أراد أن يعاند ويتمرد معتمداً على رصيده لدي رجل الشارع، وصعوبة أن تستغني القناة عن خدماته.

ولكي يكسب "عبد القادر" الوقت اتصل بإدارة الإنتاج فأرسـلوا ملابس وأقفاصًا لفلاحين وتجار وطلبة، وسيدة بطفلهـا الرضـيع كانت تلح منذ أسبوعين على أي عمل !

وهكـذا اكتمـل " النصـاب القـانوني " فتحركـت السـيارة بمصورين، ومساعدين يرتدون ملابس عمال، وكهربائية فـي زى تجار، ومدير إنتاج في زي قرصان خارج لتوه من السجن، وامرأة كانت محجوزة برضيعها في قصر العيني، ومخرج يلـف رأسـه الصغير بعمامة تاجر كبير، ويحاول أن يسيطر على بطة متسـخة البطن والذيل تحاول عند كل مطب أن تطير، أو تنقر عمامتـه أو نظارته الطبية عند كل منعطف!!

فيما راح صفوان يغفو بين الحين والآخر.. ويحاول أن يستعيد ذكر آخر مرة زار فيها الفيوم، فوجدها بعيدة، وغير سعيدة.. حيث تاه في شوارع متربة تغص بالمعيز والكـلاب الضـالة.. وعلـى مداخل البيوت المعتمة تجلس النساء على الأرض المبتلة تفلي كـل واحدة منهن رأسها أو رأس ابنها.. وتتطلع بفضول ـــ لا يقبـل الحياء ــ في الذاهبين والقادمين !

على مشارف المدينة استقبله "السيد المحافظ" بين جوقـة مـن رجاله المبجلين ولاحظ صفوان أن المحافظ قد انحني قليلاً وهـو يصافحه، وكذلك فعل أتباعه.

ـ أهلا يا ابني .. الفيوم نورت.

ـ منورة بأهلها يا سيادة المحافظ.. أخبار السمك إيه؟

ـ جاهز يافندم.. اتفضل حضرتك على الأوبرج.

ـ أنتوا زرعتوه في الأوبرج؟.. طيب والبحيرة؟!

ـ بحيرة إيه يافندم؟

ـ بحيرة قارون.. لسه موجودة؟

ـ طبعا.. طبعا.. حتروح فين يا باشا.. اتفضـل حضـرتك.. الطريق يا حمدان أهلا وسهلاً.. أهلاً وسـهلا.. أنـا عـارف إن حضرتك جاى عشان وادي الريان.. لكن ياريت تسمح لنا بـنص ساعة من وقت حضرتك نستعرض فيها إنجازات المحافظة.

ـ إنجازاتك مشهودة يا سيادة المحافظ .. كفاية اللافتات اللـي على الطريق من الجانبين: ابتسم أنت في الفيـوم.. سـبحان الله.. ابتسم أنت في الفيوم.. سبحان الله.. من أول متر في الجيزة لحـد هنا.. بس فيه حاجة بسيطة قوى مخلتناش نبتسم طـول الوقـت، وهي إننا رحنا سنورس لأننا ملقناش أي يافطة تدل على الفيـوم، لكن كويس.. استمروا.. ربنا معاكم.

ـ يا صفوان بيه متنساش إن الأمية عندنا في الفيوم أكثر مـن 60 في المية.. نكتب لمين ولا مين؟.. إحنـا يـا سـعادة الباشـا محافظات شهيدة.. كومبارس.. إحنا وبني سويف، وبنها، تـابعين

لغول اسمه القاهرة. لا حد بيظهر إنجازاتنا، ولا أعيادنا.. لا عندي فنادق، ولا شواطئ، ولا بنية أساسية تشرفني وترفع راسي ..

ـ أنت مش عندك عيال؟..

ـ الحمد لله عندي سعاد وطلعت..

على فكرة يا صفوان بيه.. طلعت ابني مبسوط من برنامجك قوى .. ولما عرف إني حقابلك النهارده طلب صورة من حضرتك.. وكان نفسه يشوفك لكن الامتحانات بقي هي اللي ...

ـ هو في سنة كام؟

ـ تانية ثانوي .. لكن أنا وعدته إن حضرتك حتشرفنا مرة ثانية.. ولا إيه يا صفوان بيه؟ أطمنه؟!

الفصل الخامس عشر

بدأ السيد / w.G الرئيس والمدير والوكيل الأول والأخير لقنــاة b.wc. يدير مواتير عقله، وتروس ذاكرته، فشخص مشكلة صــفوان على الفور، وهداه حسه الرأسمالي، ووعيــه البراجمــاتي إلــى العلاج الناجح، فقد علمته التجارب إنّ البشر مثلهم مثــل القــرود، مربوطون من شهواتهم.. يتصرفون بمنطق الخوف من العصا، أو الطمع في الجزرة، ومن السذاجة أن تنتظر من أي قرد أن يعمــل لك "عجين الفلاحة" مجانا.

لكن النجاح غير المتوقع لصفوان ـــ وجماهيريته التي تجاوزت الحدود ـــ لم تبق في يده سوى خيار وحيد: وهو الجزرة.

لذلك قرر أن يرفع أجره ومكافأته، ليقطــع عليــه كــل ســبل الهروب والتمرد، لكن صفوان فاجأه بما لــم يتعلمــه فــي كليــة التجارة، أو أدغال الحيــاة، حــين أخطــره أنــه لــن يســتكمل هــذه المهزلــة ، إلا إذا حصــل علــى 20% مــن مــردود الإعلانات، خصوصاً بعد أن وصلت الأمور لديــه إلــى "فتحــة

الإست"، وأغلقت كل منافذ الحرية، ولم يعد باستطاعته حتى المشي في الشوارع، أو إقامة أي علاقة طبيعية مع غيره من البشر.

إنه تعويض بسيط قد يستطيع به ــ بعد أن تنتهي اللعبــة ــ أن يحبس نفسه في شقة أوسع حتى يموت، أو ينتقل إلى حــي آخــر لا يعرفه فيه الكثيرون!

أما رئيس القناة فقد لاحظ أنّ صفوان قد تجاوز كــل الخطــوط الحمر، ولافتــات التحــذير التــي وضــعت لأمثالــه، فاســتعان بمستشاريه، ومن يرسل لهم مرتبات شهرية دون أن يراهم، فأفاده بعضهم برأيه، واعتذر بعضهم عن الحضور . لكنه أدرك أن مثل هذه البرامج يصعب الرهان على نجاحها فــي المســتقبل، فهــي كالكباب لا يؤكل باردا، وكالبيرة لا تشــرب إلا بــاردة، ومثلمــا أهاجت عواطف الناس بسرعة، يمكن أن ينساها الناس بســرعة!! وعلى اللبيب أن يقطف ثمار ذلك ولو كانت نيئة ، قبل أن يتركهــا لغيره ناضجةً ودانية! ولكن هل يعني ذلــك أن يــدفع 20% مــن صافي الإعلانات؟ وهل يخضع للابتزاز بكل هــذه الســهولة؟ أي حرية تلك التي يتكلم صفوان عنها؟.. ومن منا يملك هذه الحريــة بالفعل؟.. كلنا نضحي بحريتنا من أجل مصالحنا.. ونقدم المصلحة على الوعي، والضرورة على الحرية ، وجزء من مشكلة المســود أنه لا يدرك أنني سيد عليه ، ومسود من غيره ، "ولولا دفــع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض ". لــذلك حــاول أن ينــاور

ويهادن ، يعد ويتوعد .. لكن كل هذه المحاولات لم تـؤثر علـى صفوان، الذي بدا كأنه قد باع كل شيء، وراهن بكـل مـا يملـك وبدت أيامه الأولي أكمل وأفضل، صـحيح أنهـا كانـت فقيـرة ومحبطة لكنه كان يشعر فيها بإنسانيته، بقدر ما على التأمل، يجعله يفرح حتى بالحد الأدنى من الحياة.. نعم.. كان يسـتطيع أن ينـام دون أن تداهمه الكوابيس، يرتدي ثيابه أو لا يرتدي .. يأكـل مـا يجده دون أن يشقيه ما لدي غيره ، يـدخل الحمـام أو لا يـدخل يمارس دوره الطبيعي كمخلوق يخطئ ويصيب، يسـقط وينجـو، يحلم ويأمل، يسهر أينما شاء، ويعود وقتما يريد.

أما الآن فقد شعر بتغير في تكوينه العضوي، فـي فطرتـه، فـي حساباته.. ولهذا وذاك يريد أن يعود لنقطة الصفر.. للهـواء الطلـق والدنيا البراح. وإن قُدر له أن يبيع كل هذا، فليكن بمالٍ وفير.. فهو لا يبيع بعض وقته، أو حتى بعض جهده لفرد أو حكومـة، لكنـه يبيـع طبعه، وحريته، ووعيه، وعلى من يشتري كل ذلك أن يدفع الكثير.

أما مدير القناة فقد شعر بإحباط لم يشعر بمثلـه، حتـى وهـو يخسر صفقة الخشب الأولـي، ولا حـين رسـي المـزاد علـى غريمه، كان وقتها يتاجر بالآلاف، أما الآن فيتاجر بالملايين، ومن يتاجر بالملايين يمكن أن يخسر الملايين. ومع من؟.. مع عاطـل مبتز لا يساوى راتبه!.. "أنا الذي صنعته، وهيكلته ونجمتـه وأنـا من يستطيع أن يهدم هذا الهيكل ويطفئ هذه النجمة!

كله بمالي.. بنفوذي.. بصلاحياتي، وحيثياتي الاجتماعية.. ومن يسبقك يا حصان إن كنت تجرى وحدك؟!"

●●

بعد ساعتين من رفض صفوان لأي تنازلات، أو مساومات، كـــان الرئيس قد اتخذ قراره الحاسم.. فهو لن يضحي بـــألفين أو ســـتة آلاف جنيه كل يوم، ولكن يمكن أن تصـــل الأمـــور إلـــى ربـــع مليون!.. ولمن؟.. لصفوان عبد الفضيل الذي لا فضل له أو صفاء والذي لا يرينا إلاّ سطحه الخارجي، ويداهمنا بظلامه الـــداخلي . لذلك جاء القرار باترا وساحقاً، وهو أن نبحث عن بديل لصـــفوان يدين له بشكله .. ويدين لنا .

بمضمونه ووعيه!!

الفصل السادس عشر

اجتمع السيد / W.G بمستشاريه على وجه السرعة، وأخطـــر مـــن حضر منهم بما جرى.. وبعـــد أن قـــدم المشـــروبات الأرضــــية والسماوية ماطلوا، وطلبوا وقتا ليفكروا في الأمر، لكنه هب واقفـــا وضرب طاولة الاجتماعـــات ضـــربة، لـــو نزلـــت علـــى جبـــل لسحقته، وهددهم بأن بيته سيخرب، وبيـــوتهم أيضـــا فـــ20% لا تعني سوى الخراب .. صحيح أنني أكســـب الكثيـــر، ولكـــنكم تعرفون أنّ رجل الأعمال في بلادنا كأرنبة البراري.. عليها أن تلد الكثير والكثير لتبقي لها واحدة أو اثنتان، وحين حاول أحـــدهم أن يفاوضه حول ذلك رده الرئيس على عقبيه، وأكد للجميع أنه حاور وداور، لكن صفوان أغلق في وجهه كل أبواب الحـــوار. والنـــاس عادة تهتم بالظل، ولا تهتم بالشجرة التي صنعته. وهذا هـــو حـــال الكبار، ينحنون للأقزام ليصعدوا على أكتافهم، فإذا ما تربعوا على الأكتاف، لم ير الآخرون غيرهم!!

ـ أنتم أول من يعلم كم تعبنا وبذلنا من جهد ومال، لكي نجمله وندربه ونقدمه للآخرين ، وعلينا الآن أن نعصره ـ كالزيتونة ـ

لآخر قطرة. فهاهو الوقت يداهمنا، والمنافسة لا تعرف الرحمـة، فلا تمطرونا بشعاراتكم، ولكن قطرونا بخبراتكم، وأخطرونا بمـا نفعل: "نغلق الباب أم نفتحه؟.. هل نستمر في اللعبة، أم نهدم كـل قلاع الرمال التي بنيناها؟.. هل نؤكد أنها محـض لعبـة رمليـة ليدوسها كل عابر؟ أم نوغل في الممازحة ونصدق أنفسنا؟! دعوني أسمع إجابات لا أسئلة، فإجاباتي قليلـة" .. غيـر أنـه لاحـظ أنَّ إجاباتهم جـاءت فيمـا بـين السـماء والأرض ، فعـزا الأمـر للمشروبات، ولم يخطرهم بما عزم، حتى وهو يودعهم على بـاب مكتبه، ويثني على إجاباتهم، وما كاد يخلو بموظفيه، حتـى عـاود ضرب الطاولة.. ولعن كل المستشارين والأكاديميين، وقال كلامـا كثيراً، فهموا منه أنه يريد بديلاً لصفوان، تكون له نفس الملامـح والخصائص، حتى ولو كلفه ذلك مليون دولار: "ابحثوا فـي كـل المحافظات.. في القرى والنجوع.. وها هو توقيعي لمن يبحث عنه في لندن أو بغداد.. أو يجده في بيروت أو طنجة".

كل ما أطلبه منكم هو السرعة والسـرية.. ولتعملـوا بمنطـق الخلايا المنفصلة، ولترموا بكل الأسرار فـي حجـرى.. فهنـاك مكافآت مجزية، وترقيات واجبة.. وبدلات مفتوحة.. أريد نسـخة مطبعة من صفوان عبد الفضيل.. نسخة أستطيع أن أمسـح بهـا حذائي حينما أريد.. أما أين تجدونه وكيف، ومـا هـي الوسـائل والأساليب، فهذا شأنكم.. ليتقنع أحدكم بقناع صـعيدي، أو تـاجر جلود.. خواجة أو خوجه.. عسكري أو حرامي.. فكلها خيـارات

مفتوحة، المهم ألا يعرف أحدكم بما يفعله الآخر، وأن تنكــروا أي علاقة لكم بـــ B.W.C حتى لا ينقلب السحر على الساحر" .

وبلهجة خطابية غير معتادة صاح وهو يقف لينهي الاجتماع:

ـــ أيها السادة.. من فضـــلكم.. أتحفـــوني بصـــفوان المســـخ.. صفوان النذل.. صفوان المطيع ككلب.. الخنوع كحميـــر الجـــر.. الأكول كدودة القز.

ورآه آخر مغادر وهو يفرك بيديه الكبيرتين، صـــورة حديثـــة لصفوان عبد الفضيل.. ويتقبها بنابيه البارزين!!

الفصل السابع عشر

مر وقت طويل قبل أن تعود اللجان بتسعة أشخاص.. وفي شقة مفروشة بوسط البلد، استقبلهم السيد / W.G متنكراً في زى خليجي!!

كان أغلبهم بالفعل يشبهون صفوان في الملامح.. لكنه حين اختبرهم كلٌ على حدة أصابه الإحباط، وكاد يطلق النار على نفسه!!

فها هو الوقت يمضي، ولم يبق على تهديد صفوان سوى ساعات، ويترك لهم الشقة إلى حيث لا يعلمون..

وها هم مبعوثوه المختالون لا يجدون في أركان الأرض سوى هؤلاء الأوغاد !

وما زاد من دهشته أنّ أبعدهم شبها لصفوان هو أقربهم صوتا وطبعا إليه، فصرفهم بمعروف، واستبقى الأخير.

ولم يعد أمامه إلاّ أن يصنع قناعا محكما في أوروبا، ويُوكل من يدربه ويلقنه ويمرّسه على دوره الجديد، في أقل وقت ممكن!

وحين أتي قناع صفوان ألبسه "للبديل"، فهاله مـــا رأي: نفــس الملامح والأبعاد والتفاصيل.. نفس الصوت والجسم والرسم.. لكنه قبل أن يخطو الخطوة الثانية كان قــد ربــط "البــديل" بتعاقــدات وإقرارات وشروط لم يفرضها الغازي على النازي..

ثم لعق شفتيه ونابيه، وهو يتوعد ابن عبــد الفضــيل .. الــذي لا يعرف أنَّ بين النور والنار خيطا لا يدركه إلاَّ الممعنون!!

O

وعبر الهاتف فاوض صفوان لآخر مرة، فيمـــا كانــت القنـــاة تعرض فقرات أرشيفية عن بداياته، والمظالم التـــي داهمتــه فـــي طفولته. وحين فشل في ذلك أشار لمرافقيه، فقيدوا صفوان، بعد أن خلعوا ثيابه، ورموه في غرفة المهملات ثم كمموا فمه..

وحين عاد البث المباشر كان البديل قد لبس لبسه وجلس علـــى مقعده، واستعار سمته، فيما قضي صفوان ليلته على البلاط عاريا ومكبلا في الظلام.

O

تفهم رجالات الأمن والخبراء مـــا حـــدث لصـــفوان بـــبعض الارتياح.. فاضطر السيد / W.G أن يزيل كل المخاوف، فأكــد أن صفوان محجوز في مكان أمين حتى ينتهي البرنامج، ويذهب كــلٌّ إلى حاله، واضطر أن يصارحهم بكل ما حدث، فلم يجد أحدهم بدا من الموافقة.. فالكل شريك.. والكل في مركبٍ واحد.

O

والحق أنّ صفوان قد أحرج الكثيرين، حين فتح قلبه مجانا فغير حسابات وأربك تدابير، وهو ما أغضب المسئولين، ودفع بعضهم للتهديد بغلق القناة، خصوصا والانتخابات على الأبواب، لكن صاحب القناة طمأن الجميع وحذرهم من غوايات العاطفة.. فنحن لم نعد أمام نفرٍ من الأنفار، أو شخصٍ من الشخوص، وإنما أمام ظاهرة مازالت تتنامي، وتتفاقم كل يوم، بعد أن فقدت الحكومات سيطرتها على وسائل الإعلام وأدوات العولمة، وبات عليها أن تعالج الأسباب والنتائج، ولا تجيب على الأسئلة الجديدة بأجوبة قديمة!

ثم وعدهم بأنه من أشعل جذوة صفوان، وهو — بعون الله — من سيطفئها.. ويهدم المعبد على من فيه!!

إذ كسر صفوان — بالفعل — كل الأقفاص التي وضعوه فيها، وتخطي كل الخطوط الحمر والزرق التي رسموها حوله.. فقد أرادوا به أن يمتصوا غضب تلك الشرائح المحبطة من البرجوازية الصغيرة.. وإلهائهم عن الغلاء والفساد والبطالة، لكنه أعرض عن ذلك، وعمل لحسابه الخاص! ليس لأنه متمرد بطبعه، وإنما لأنه إنسان.. نسي دوره، ولم يدرك أن لهذا الدور خطوطا وحدودا، وقدرة على الاحتمال، والأهم من كل ذلك: أنه لم يحسن التوقيت، لذلك، بات عليهم تحجيمه وتقبيحه بنفس الحماسة التي عملوا بها لتنجيمه وتجميله!

في البدء كانت هناك خيارات كثيرة لدي السلطة، ولم تكن B.W.C من ضمنها.. منها استقدام فريق البرازيل، أو ريال مدريد،

أو افتعال أي قضية تشغل الناس، ولو لبعض الوقت، كما حدث مع "فتاة العتبة" التي شغلت الرأي العام لفترة طويلة، قبل أن يكتشف الناس أنها تمثيلية وحدوتة ملتوتة!!

لذلك ما إن لاحت موجة صفوان حتى ركبوها على الفور.. ودعموها بكل الدعائم والشبّاك، على أمل أن تسقط في أيديهم كل الغنائم الناضجة.. أما الشوك والحصرم، فللأعداء والحاسدين والمتربصين!!

الفصل الثامن عشر

قبل أن يظهر البديل بيومين، فوجئ الجميع بما لم يخطر على بال أحد، وهو أنه ألثغ لا يستطيع نطق كل الحروف التي تحتوى على حروف معينة.

كانوا قد ركزوا جهدهم على تطابق الملامح، وتقارب الحركات والسكنات فنسوا غيرها.. ثم اختبروا شعوره بالكرامة، فلم يجدوا ذرة من كبرياء.. حتى إن أحدهم ضربه على قفاه ــ مازحًا ومختبراً ــ فضحك، وركله آخر في مؤخرته فواصل الضحك، ولم يستطع كبح ضرطه!!

قالوا: ممتاز.. هذا ما كنا نبحث عنه! فهو يصلح لكل العصور، ويستأثر بجل المصائب..

لكن عيوب النطق يمكن أن تكشف كل شيء.. وتطيح بكل الترتيبات والحسابات.. لذا تحرك السيد/ W.G. وفتح كل الخطوط مع مستشاريه.. وحين انتهي من وصف الكارثة، أتته الردود مائعة.. نعسانة.. شاحبة، فاستدعي المخرج، وأمره أن يؤجل ظهور البديل لمدة 24 ساعة حالما يعلّمه أحد الخبراء كيف ينطق حروف النحس هذه.

أما صفوان: "فلا تخرجه من محبسه، حتى ولو قامت القيامة، فهو كالنمر الجريح، إن خرج الآن فلن يبقي على أحد، وسيهدم كل المعابد"! غير أن الخبراء اعتذروا لضيق الوقت، ونصحوا بألاّ ينطق هذه الحروف أصلا، أو يتجنب كل شيء، فلا يرد على أي تليفون، وهو ما يعني خسران القناة لعشرات الآلاف من الجنيهات كانت تتحصل عليها من وزارة الاتصالات وغيرها من جهات تبيع الكلام .. لأناس تحب الكلام.

ـ في ستين داهية.. خسارة بخسارة!!

هكذا صاح السيد / W.G. وهو يعطي الضوء الأخضر لمخرج البرنامج، ويرمي بسيجارته من النافذة .

وهكذا بدأ اليوم الأول بدون صفوان، فراح المخرج يستعرض السلع داخل الشقة، وينزل بالإعلانات القديمة لبنات يتقصعن ويتمخطرن على شاطئ البحر، حتى ظن الناس أن كارثةً ما قد حلّت بصفوان، وأن هؤلاء إنما يمهدون لإعلانها أو إخفائها. وقبل أن تغرب الشمس كانت بعض الإشاعات قد تكاملت وانتشرت داخل الوطن وخارجه.

وقبل أن تشرق شمس اليوم التالي، كانت المظاهرات والاحتجاجات والتساؤلات المستريبة قد وصلت إلى مقر القناة بوسط العاصمة.. ووُجد بين الغاضبين من يكسر زجاج المدخل، ويعتدي بالسب والضرب على أمن المبنى، ومن يطالب بدم صفوان!!

ووجد السيد / W.G نفسه في موقف لا يُحسد عليه، ولا يؤمن فيه على حياته، فأمر سائقه بالعودة إلى البيت.. قبل أن يراه الغوغاء.. ومن هناك اتصل بالمسئولين والمختصين ورجالات الأمن، وظل في فيلته بالروضة حتى جاءته الأوامر..

— "ارجع إلى القناة.. وتعامل مع الأمور بحكمة"..

فتنكر في زى فلاح، وتسلل بسيارته إلى هناك.. وحين دخل مكتبه من باب الطوارئ وجده محطما، وقد تناثر الزجاج والحصى في كل مكان..

نادي على السعاة فلم يجد أحدا.. وعلى الأمن فوجدهم بالمستشفي، اتصل بإدارة الإنتاج والكنترول واستديو الهواء، والإدارة الهندسية فطمأنه الجميع.. وأخطروه بأن شرطة مكافحة الشغب قد صرفت الجميع، وقبضت على بعضهم، أما مذيعات الربط ومساعدات المخرج فيختبئن في البدروم.. ولولا رحمة الله لأشعل المتظاهرون النار في المبني وسياراته العديدة على الجانبين فاتصل بالمخرج على رقمه السري، وعرف أنه في حديقة الحيوان! فأمره بأن يذهب فوراً إلى بيت صفوان، ويحاول أن يرضيه بأي مبلغ من المال.. فإن وافق على استكمال البرنامج كان بها.. وإن بانت منه أنياب الغدر والانتقام، فليبقه في محبسه بين الحياة والموت.. ويأتي بالبديل قبل أن تغرب الشمس!!

وقبل أن يبدي المخرج أي ملاحظة، طمأنه الرئيس، ونصحه بالصبر، حالما تنتهي إدارة الإنتاج، من عمل مُجسّم لشقة صفوان في جبل المقطم! وبعدها يحلها الحلال.

وقبل أن ينهي المكالمة، أمره بغلق كل التليفونات، وكـاميرات البث، وملء الفراغ بأي مادة مسلية، ثم نصحه بضرورة أن ينسي بيته وأولاده هذه الأيام العجاف، إن أراد ـ فعلاً ـ أن يربيهم، بعد أن اختلط "الحابل بالنابل" والصالح بالطالح.. ولـم تعـد القضـية قضية رأي عام يمكن تقنينه أو تدويله.. وإنما قضية أمن قـومي.. لا يمكن تأجيله أو تأويله.

وقبل أن تغرب الشمس، كان البديل الجديد قد استلم عمله بالفعل بعد أن دربوه، وعلموه، ولقنوه!!

الفارق الوحيد الذي لم يلاحظه سوى المخرج هو ضيقه بالقناع الجديد.. والعرق الذي كان ينز من تحته، ويدعوه للهرش، فطلـب من الفنيين تشغيل التكييف كله، وطلب من البديل ـ الذي لم يكـن قد سمُّوه بعد ـ أن يكف عن النظر الدائم للكاميرات المثبتة في كل أرجاء الشقة.

وهي تفاصيل لم تكن تهم رئيس القناة ، مـادام الغـرض مـن البديل قد تحقق ، واستطاع ـ بخبرته وحسن تصرفه ـ أن " يوئد الفتنة في مهدها".. حتى ينام قرير العين، لـذلك اسـتجاب لـرأي المخرج، ونقل صفوان مكمما ومقيدا إلى فيلته النائية بـ "كيـنج مريوط"، بعد أن سمع المخرج صوت تمرده داخل الغرفة المغلقـة وخاف أن يفاجئ الجميع على الهواء ويكسـر البـاب، أو يرفـع الكمامة ويفضح الجميع!!

حاول بعض المشاهدين أن يتصلوا بصفوان ، ويسـألونه عمـا جرى.. وعن سر نظراته القلقـة إلـيهم، لكـن القنـاة اعتـذرت

لهم، وذكرتهم بقواعد اللعبة وهي أن الاتصـــالات لهـــا مواعيـــد مقدسة، لا تزيد عن ساعتين، حتى نريح ضيفنا الكريم!

وقبل أن يثبّتوا الكاميرا علـــى ميـــدان عابـــدين ــ بســـياراته المارقة ــ أكدوا لكل المشاهدين أن صفوان يعاني من وعكة خفيفة بسبب السهر والأكل الكثير.. وأنه لن يستطيع أن يرد اليوم علـــى تليفونات المشاهدين بناء على نصائح الأطباء، فعـــذراً للجميـــع.. وشكراً لاهتمامهم!

وبهذا تخلصت القناة ــ وصاحب القناة ــ من أشرس تحـــديات اليوم الأول، وقطعت الطريق على مظاهرات واحتجاجات قيل أنها ستخرج من بيروت وبغداد، ومراكش، وعمان، وبعض المغتربين في أوربا والأمريكتين وربّما شارك في إذكائها جمعيـــات أهليـــة ودولية يصعب حصرها.. أو رد فعلها.

فلم تعد القضية قضية شخص ــ آخر ــ يعيش فـــي صـــحراء أفريقيا أو عبر البحار والمحيطات، وإنما قضية كائن حي.. مثلـــي ومثلك.. لابد أن يعيش ويتنفس، يأمل وينال، يفـــرح ويغضـــب.. يخطئ ويصيب.. شخص يعيش خارج نطاق جسمي نعـــم، لكنـــه يدخل غرفة نومي.. وتلابيب وعيي ، أراه أكثر ممـــا أري أهلـــي وأصدقائي.. وكأنه مرآتي..

أراه بكامل رغبتي وامتناني !!

الفصل التاسع عشر

بعد أن انتصف الليل، وجد صفوان نفسه مقيدا في شنطة سيارة تخترق الشوارع بسرعة جنونية، وتنعطف بشدة نحو اليمين ونحو اليسار.. وكلما عبرت حفرة، أو صعدت مطبا، سمع صوتا حديديا لأدوات الرفع والربط وهي تصطك من حوله، وتصطدم بأجسام معدنية مزعجة.

ومن حركة السيارة وسرعتها ، عرف أنها عبرت قرى، وانتظرت قطارا، وها هي تترك الأسفلت إلى الصحراء.

تأكد له ذلك حين أنزلوه في الظلام، واقتادوه إلى سور أو مبني بعيد، وسمع نباحا لكلاب، وترحيبا بالقدوم.

ــ يا مرحبا.. يا مرحبا بالرداله!

ــ جايبين لك أمانة يا عطوان!

ــ أهلا بريحة الحبايب.. محفوظة يا بيه.. إتفضلوا..

وسمع فتحا لبوابة حديدية، ورأي بقعاً من الضوء تنتشر على مدى البصر .

لم تكن هناك حاجة لعصب عينيه، كان الظلام كافيا فرأى زميل عطوان يعد الشاي على راكية نار هامدة، فيما تمتد الصحراء على الجانبين.

ـــ أشغل الكهربا يا سعادة الباشا؟

ـــ لا يا عطوان.. إحنا ماشيين على طول.

ـــ من غير متشربوا شاي ؟..

ـــ إسمع يا عطوان .. أوامرك حتاخدها من البيه الكبير.. فاهم؟

ـــ فاهم يا بيه.. سامع يا درداوى؟

ـــ سامع يا عطوان.

ومن حوارهما عرف أنهما حارسان من الصعيد الجواني، وأن من أتوا به إلى هنا لابد من رجال G.W لكنه تأكد أنــه مخطــوف ومحبوس في بدروم فيلا تبعد مئات الكيلو متــرات عــن مســكنه بعابدين، وعليه ـــ الآن فصاعداً ـــ أن يتخلص من قيده، وما كادت السيارة تغادر المكان، حتى بحث في الظلام فوجد مقعــدا صــعد عليه إلى نافذة صغيرة، فــرأى أســوارا عاليــة، ورأى عطــوان وجرجاوي يتحلقان حول النار، ويعدان الجوزة والشاي.

كان الإرهاق قد أتلف كل حواسه، بحث في الظلام عن شــيء ينام عليه، أو شيء يحل قيدَه، وأشياء تساعده على الانتقام!!

حاول صفوان ـــ أكثر من مرة ـــ أن يهرب مــن هــذا الحــبس الانفرادي وفشل، كانت إجراءات "الحماية" صارمة، ومتعددة الخطوط: كلاب ألمانية جائعة، لها فم التماسيح ومهارة الفهود، أجــراس إنــذار بخلايا ضوئية فائقة الدقة، حراس من "الصعيد الجــواني" يتنــاوبون الحراسة ليلاً ونهارا.. صحراء ممتدة إن أخطأت الطريــق طمرتــك الرمال المتحركة، وإن ضللت نهشتك النسور والضواري.

ومن محبسه البدرومي المعتم.. كــان يســمع الحــراس وهــم يتسامرون حول النار، وسمعَهم يتصايحون، فنادى:

ـــ عطوان... جرجاوى!!

فنهض الرجلان رعباً، دون أن يجرؤ أحدهما على التقاط سلاحه!
ـــ مين؟.. مين؟..
هكذا صاحا بصوت واحد، وهما يستعيذان من الشيطان الرجيم.
ـــ أنا صفوان.
ـــ صفوان مين؟!
ـــ صفوان اللي ..
ـــ ايوه .. ايوه.. وعاوز إيه يا صفوان أفندي؟!
ـــ عايز أشرب شاي.
ـــ شاي إيه الساعة دي؟.. داحنا كنا نروح في داهية.. أنت بتتكلم منين!!
ـــ بتكلم من بقي !!
ـــ أنت حتهزر معايا.. مانا عارف أنك بتتكلم من خاشمك..طب يكون في علمك، إحنا ممنوع نتكلم وياك واصل. ولا حتى نقولك سلامو عليكم!
ـــ ليه يا عم درداوي؟
ـــ أوامر .. وبعدين أنت عرفت اسمي كيف؟
لاحظ صفوان أن هنالك بعض الفلل والقصور، التي بناها بعض الموسرين ـــ غسلا لأموالهم، أو خوفا من تقلبات الزمن ـــ في الصحراء الغربية، متناثرة وخيالية المساحة.. لبعضها عدة حمامات سباحة، ومهابط لطائرات الشارتر، ومضمار لسباقات الخيول، ومزارع للنعام والغزلان، تمتد بامتداد النظر، نادرا ما يراها أصحابها.. ونادرا ما ينام فيها ـــ أو خارجها ـــ إلا الخفر أمثال: "جرجاوى" و"عطوان"!
ـــ الشاي يا ولد العم.. بس وحياة أبوك.. ما تقول لحد!!

وأنزل الكوب من خلال حديد الشباك، فشب صفوان على المقعد ليلتقطه بلهفة، وما كاد يرتشف الرشفة الأولي حتى شعر بأنه أفضل شاي شربه في حياته.

ــ معندكوش تليفزيون هنا يا عم درداوي؟

ــ عندنا في البلد يا سعادة البيه.

ــ بقول هنا.. عند الجيران.. عند ..

ــ هنا كيف.. إحنا جايين نتفرج ولا نحرس الفلل؟ ماتقطعش عيشنا وحياة أبوك.. هات الكباية، وكفاياك خربطه!!

ــ يعني أنت مشفتنيش في التليفزيون قبل كده؟

ــ وأشوفك ليه؟.. متقال أنت؟.. ولا الريس قناوى؟

ــ ياله يا درداوي.. فوتك من الكلام الماسخ ده!

هكذا صاح عطوان من بعيد، وهو ينفخ في النار، ويضع إبريقا أسود بلا غطاء حولها، فيما ظل صفوان يحاول الخروج من هذا المعتقل الكئيب .. الذي لا تعرفه السلطة، ولا يدركه القضاء.

كان أول ما فكر فيه : أن يذهب إلى النائب العام، أو يدعو لمؤتمر صحفي، أو يتصل بوكالات الأنباء، أو منظمات الحقوق والأمم المتحدة.. أن يبوح بكل شيء، ويكشف كل مستور ومكنون.. كان يعرف أنهم لم "ينجموه" لأنهم محبون لهذا الشعب، أو حريصون على كرامته، وإنما لأنهم يكرهونه لأقصى مدى.. ويتجاهلونه لأبعد درجات التجاهل.. أما هو فيشعر أنه ساعدهم على ذلك ــ أملا في الخلاص، أو رغبة في المغامرة ــ وعليه أن يعتذر للجميع وعلى الهواء مباشرة.. ويحذرهم من غوايات الحل الفردي.. لقد مضى عصر شمشون، وأدهم الشرقاوي، وانقضى عصر الفتوحات الصغيرة، وبات على من يرغب في تعلم الرقص، أن يتعلم المشي أولا، ومن يتعلم صيد الغزلان، أن يتعلم كيف يقاوم النمور!!

الفصل العشرون

ظل "الدوبلير" يلعب دور صفوان بإتقان لم يدهش المخرج وحده، وإنما أدهش كل من صنعوه ، ودربوه، وتداركوا به كل المثالب. فساعدهم بالصبر الجميل، وتجنب عيوب النطق والثرثرة، ولم يعترض حين حلقوا شاربيه كي لا يظهرا تحت القناع، وتحمل ضيق القناع وروائحه المقززة، وأثبت أثناء التدريب أن الإنسان ــ فعلا ــ أصله قرد!!

فكلما رفض أو تمرد رموا له بجزرة جديدة، أو موزة مغلفة بطبقة سكرية.

كانوا قد وقفوا على تاريخه القديم، وعرفوا أنه كان مدمنا "للماكس فورت".. فأذاقوه "الهروين" و"الكودائين"، وكل ما يبعده عن التأمل ، أو يشجعه على الانتحار!! ثم علّموه كيف يتمسكن ليتمكن، ويعوض إخفاقه السابق في التمثيل، وذكّروه بما فعله المخرج الواقعي، حين رماه في المجاري ليلا، وحين أصر على أن يرميه من سيارة مسرعة كي يعطيه ــ في النهاية ــ أجر دوبلير، وينتشله من وحل الكومبارس!!

قالوا له : "دعنا نصدق كذبك".. وحين أجاد الكذب صدقوه!!

ـ "أنت عبارة عن سنارة.. وظيفتك أن تغـري السـمك، وأن تكون وسيطا بين "الطعم" والصياد، فلا تطمع في سمكة، ولا تسـع إلى ذلك.. فهناك تشبيه آخر لا داعي لـذكره، حتـى لا تغضـب الحمير.. ما يهمنا في الأمر هو الطاعة.. مفهوم؟" .

ثم بدأت الخطوة التالية، فطلبوا منه أن يتدرج فـي "الغتاتـة" و"الغلاسة" و"البواخة"، و"اللزوجة" و"اللتاتة" حتى يكرهـه النـاس شيئا فشيئا.. وعلموه كيف يأكل بشراهة مقرفة، ويلحس أصـابعه بطريقة مقززة، ويتكرع بصوت عالٍ بين الحين والآخر، وكيـف يظهر وجهه عكس ما يضمر قلبه، وينفث دخان سيجارته في وجه مشاهديه. وأن يصدر ما يحب من أصـوات حـين يكـون فـي الحمام، أو على السرير، حتى جاء الحوار الأخير مع المشـاهدين ليحقق كل ما أرادوه.. وسعوا إليه:

ـ آلو .. تسعة وسبعين ربعمية تسعة وخمسين؟

ـ هو بعينه.. نعم ؟

ـ خليك معايا لو سمحت. مصر معاكي يا ست أم عتريس.

ـ آلو ؟

ـ آلو.. نعم!

ـ أنا اللي قلت آلو الأول!

ـ أهلا وسهلا.. مين حضرتك؟

ـ حضرتي؟.. أنا سعاد يا صفوان.. أختك المتجوزة في كفـر علام. أنت نسيتني ولا إيه؟

ـ أبدا.. أبدا.. ازيك يا سعاد؟ عامله إيه؟ عندك كام ولد؟

ـ ستة يا خويا.. عقبال منشوف ولادك. بقولك إيه يا خويا..

ـ نعم يا أختي ؟

– أنت مش عايز تفرحنا بحتة عيل والا إيه؟
– مش لما أتجوز الأول يا سعاد؟
– وإيه اللي مانعك يا خويا.. الشقة وعندك.. طب دانا سمعت أنك بقيت راجل كبير قوى.. صحيح الكلام ده يا خويا؟
– صحيح.
– وبتطلع في التليفزيون كل يوم؟
– ليه وانتو معندكوش تليفزيون ولا إيه؟
– تليفزيون إيه يا خويا؟.. مش لما نربى العيال الأول!
– هم متربوش يا سعاد والا إيه؟
– أتربوا يا خويا.. عقبال ولادك.. بس الحمل بقي تقيل قوي والراجل تعب.. بقولك إيه يا خويا؟..
– نعم ياختى؟!
– ما تشيل معانا شوية!!
– أشيل إيه؟
– شيل معانا نص العيال.. خد تلاتة عندك يسلّوك.. أو شوف لهم أي شغلانة في أي حتة. دا الواد عتريس معاه شهادة كبيرة قوى .
– عتريس مين؟
– ابني البكر.. قعد كتير قوي في المدارس لحد ما خد العدادية؟
– ما شاء الله.. طب والتانيين خدوا إيه..
– ما خدوش حاجة.. لكن ولله الحمد، فيه واحد فيهم بيعرف ألف به كلها، من غير ماحد يقوله.. أو يغششه!
– ربنا يخليهم لك يا سعاد.. بقولك إيه ؟

ـــ أقفلي دالوقتي.. وإن شاء الله أطمنك.. إديني يومين تلاتـــة.. أنتي بتتكلمي منين؟

ـــ بتكلم من دوار العمدة ربنا يخليه.. دا بيحبـــك قـــوي قـــوي يا صفوان وشافك في التليفزيون .. ونفسه يكلمـــك.. خـــد كلمـــه يا حضرة العمدة .. أمسك يا راجل متتكسفش!!

ـــ آلو.. يا سعادة الباشا.. أنا مكسوف قوي يا ست أم عتريس!

ـــ أهلا يا عمدة.

ـــ دا شرف للبلد كلتها إني باكلم سعادتك يا صفوان بيه!

ـــ الشرف ليه يا حضرة العمدة .. كفاية أن أختي بتـــتكلم مـــن عندك.. وبتقول إنك حاططها في عنيك.

ـــ يا سعادة الباشا دي مش في عنيه وبس.. دي فوق راســـي.. تعالي يام عتريس قولي لأخوكي أخدتي إيه من الدوار امبارح..

ـــ أخدت أنجرين لبن رايب، وزلعة مش، ربنـــا يخليـــه لينـــا ويحميه يارب!

ـــ سمعت يا سعادة الباشا.. قلت حاجة أنا ؟ نعمل إيه بـــس .. أدوار يا سعادة الباشا وبنأديها.. على أمل أنها تتحسب لنا عند ربنا سبحانه وتعالي. بقول لحضرتك إيه يا باشا.

ـــ نعم؟

ـــ بصراحة كده أنا عايز سيادتك تتشفعلي عند الســـيد مـــأمور المركز .

ـــ ليه كفاالله الشر؟

ـــ عايز أجدد يا سعادة الباشا.. ومش عارف سعادته واقف في طريقي ليه!!

ـــ تجدد إيه.. بطاقة عائلية؟

ـ عائلية إيه يا سعادة الباشا.. عايز أجدد العمودية.

ـ وهي العمودية بتتجدد هي كمان؟

ـ شفت أنت قلت إيه؟.. تسلم البطن اللي جبتك.. آدي يا سيدي عيوب السياسة.. قال إيه .. عايز يجيب ابن عبد الشكور مكاني.. أقوله يا باشا دا كان حرامي معيز، يقولي إيه يعني ما أنت كنت حرامي فراخ!

ـ طب بأقولك إيه يا عمدة.. الكلام دا ميـنفعش لأننا علـى الهوا.. فوت عليّ بعد شهرين ، وربنا يسهل!!

بعد هذه المكالمة الموفقة التي أدّاها البديل، تلقـي السـيد / W.G عدة مكالمات خاصة، على تليفونه الخاص، تهنئة بالتوفيق، وحسن الاختيار فهاهو "الدوبلير" قد أتقن دوره بصورة لم يلحظها أحـد!! ولكن ما لم يعرفه الجميع أن صفوان لم يكن له أي أخت، فـي أي مكان!! وأن أباه قد ترك بلدته بالصعيد بحثا عن لقمة العيش، فلـم يعرف له عم أو خال، ولم يزرهم أي قريب أو بعيد، وكلها علـي أية حال ـ تفاصيل لا تهم أحداً. ما بات يهم المسؤلين بصدق هو: كيف نستحلب هذا النجاح لآخـر قطـرة؟ وكيـف نقـود خيولـه الجامحة، حتى تنتهي الانتخابات، وتستتب الأمور؟! لكـن حـدثت مشكلة لم تخطر على بال أحد، ولم يخطط لها سوي القدر.. وهـي موت أم صفوان ـ الحقيقي ـ وضرورة أن يدفنها بنفسـه. لـذلك أخطروه على تليفون البرنامج، وانتظروا أن يأتي ليدفنها، لكنه لـم يحضر!!

وكاد الأمر ينتهي عند هذا الحد، غير أن "أولاد الحـرام" ومـا أكثرهم في هذه الدنيا، نفخوا في النار، وصعّدوا الأمور إلى الحافة

فصعبت! وتناثرت الأسئلة: كيف تظهر لنا عكس ما تبطن.. كيف تحاول أن تقنعنا بإنسانيتك وعفويتك، وأنت بلا قلب ولا ضمير؟؟

حتى لو كانت أمك قد هجرتك – لأي سبب من الأسباب – فأين فضيلة التسامح والفروسية؟! أين نبل البنوة والأبوة التي خلقها الله حتى في ديدان الأرض؟! ألست الأجدر بالعقوق والنكران؟ كيف تحاول إقناعنا بما لا تؤمن به؟

هكذا نشر أحد المعارضين في عموده اليومي بصحيفة قومية، وآخر في صحيفة عربية، لكن تأثير ذلك ظل محدوداً في نطاق ضيق، هامس، يمكن السيطرة عليه ببعض الحيل وما أكثرها.. غير أن المعارضين للظاهرة برمتها نفخوا في نارها الخابية فاتقدت، وتردد صداها في عدة صحف وبلاد، وبات على السيد/ W.G ومستشاريه أن يبحثوا عن حل من الحلول، فاجتمعوا بضغط من جهات أمنية عليا ، وفاحت روائح القهوة واليانسون والجنزبيل ، والشاي أبو لبن:

اقترح أحدهم أن يستعان بصفوان الحقيقي – ولو على سبيل الإنسانية – فنضرب عصفورين بحجر واحد: نصالحه فنحيّد شره، وفي نفس الوقت نصوره وهو يبكي على قبر أمه!!

غير أن السيد / W.G كان أول المعترضين على ذلك، مؤكداً أن صفوان الحقيقي قد خرج من التاريخ ، وعلينا أن نستعين بالدوبلير، خوفاً من الفضائح، واتقاء لشراسة صفوان الحقيقي، خصوصاً بعد أن تكرس إحساسه بالتآمر والمهانة، ووصل بظهره للحائط الأخير. وبات كالنمر الجريح إن فتحت له القفص، عقر أقرب قطعة في جسدك!!

واقترح آخر أن يغروه بالمال والجاه، حتى يصوروه وهو ينقل أمه من مقابر الفقراء، إلى مقابر الشهداء، لكـن المخـرج تـدخل معترضاً، وقال إن صفوان غير مؤمن، ولن يضيره أن تسلخ الشاه بعد ذبحها، واقترح أن يبحثوا عن حل آخر!!

وقبل أن تنتهي القهوة واليانسون والجنزبيل، اتفقوا على تـرك النمر في قفصه، وتدريب القرد على "بكـاء الأطـلال"، و"دمـوع التماسيح"! فوأدوا الفتنة في مهدها، وانتظروا برقيات التعازي!!

● ●

بعد يومين من التدريب والتهذيب والتشـذيب، فـوجئ السـادة المشاهدون ببث حي من قرافة البساتين، حيث اصطفت السـيارات السوداء الفاخرة على الجانبين، فيما راحت الموسـيقى الرسـمية تعزف مارشاتها الجنائزية المألوفة وفوجئـوا بصـفوان الحـزين يرتدي بذلة ــ شارلستون ــ حزينة، ببيون أسود، وقبعـة سـوداء تعود للقرن الثامن عشر، وهو يصافح أناسا بـدا علـيهم الحـزن والجلال، وقد اصطفوا على الجانبين بثياب سوداء.. بـين حملـة الأعلام والنياشين!! وما إن خرجت الجثة مـن حفرتهـا الحقيـرة ــ قبل أن تنهشها الكلاب ــ حتى دخلت في تـابوت صُـنع مـن خشب الورد ، ومُوِّه بماء الذهب، وعُطِّـر بالريـاحين والزهـور النادرة.

ولم يعد على "الدوبلير" في هذا الحـر اللافـح ، إلاَّ أن يخلـع قبعته، وينحني وهو يضع زهرته على تابوت أمه، ويـريح خـده الدامع على أخر من تبقي له في هذه الدنيا.

آخر من يعرف في هذا الوجود.. آخر مـــن يحمـــل صـــفاته، وينتمي لنوعه!!

ولم يعد على الكاميرات المحمولة والمنقولة، إلاّ أن تفتح علـــى "بان أفقي" واسع على سيارات المعزين والبث الفضـــائي، وهـــي تتحـــرك بجلال ورتابة خلف عربة الشهيدة ثم تنزل بـــ "زووم" أو "كلوز أب" على وجه البديل، وهو يذرف دموع الـــوداع ويركـــب سيارة المدير السوداء. أما ما حدث بعد ذلك فـــلا يهـــم تأكيـــده أو نفيه، فقد قيل إن الجنازة عادت بعد انتهاء البث، وخلـــع الممثلـــون ثيابهم السوداء.. ولم يقبضوا أجورهم، إلاّ بعد أن تخلصـــوا مـــن الجثة العفنة، فرموها فـــي مكانهـــا القـــديم، وعـــادوا بالتـــابوت المؤجر، والسيارات المؤجرة، والثياب المؤجرة، ووضعوا الزهور الصناعية في مكانها.. والنياشين المقلدة في صناديقها.

وقيل إن الكومبارس أكلوا سندوتشات فول وطعمية، وقيل إنهـــا هامبورجر بالكاتشب والمايونيز، ورجّح من لم يأكلها أنها شاورمة بالبيض والمستردة، فيما أقسم مدير الإنتاج أنها كباب ونيفة، ولديه كل فواتير العملية.

وكلها تفصيلات، وتعليلات لا تفسد للأكل شهية!!

الفصل الحادي والعشرون

ظل صفوان سادراً في سجنه الصحراوي لا يعرف ما حدث لأمه.. أو يحدث في شقته!

وكلما حل الظلام، حاول أن يحل قيده ويتحرر ، لكن نباح الكلاب المتواصل كان يخيفه ويؤجل كل قرارات الهروب.

فيما ظل البديل يمارس دوره ـ المقرر ـ مراوحا بين الصواب والخطأ، والقيام والقعود، وكلما انحرف يميناً أو يساراً، أو تداخلت لديه الأمور، وجد من يقوّمه ، ويصحح أخطاءه أولا بأول، وكأنه "روبوت" يعمل بالكهرباء.

حتى أتت المرحلة الأخيرة، والتي خططوا لها أيضا ، فنصحوه بالمزيد من الصفاقة، والقماءة، والأنانية، حتى يكرهه المتفرجون على مهل!!

وفي جميع الحالات، كانت القناة تكسب من الغاضبين، ومن الفرحين معا، وتتحرر من مأزق صفوان ـ وظاهرة صفوان ـ الذي سببه لكل من يريد أن ينفرد بالاهتمام والسلطة وحده!

فوسعوا من دوائر المشاركة، وفتحوا كل الخطوط بين البـديل ومشاهديه.

ـ آلو.. لو سمحت حضرتك، ممكن أشارك في السيرك اللـي انتوا ناصبينه ده؟

ـ أفندم؟ .. سيرك إيه حضرتك؟

ـ مساء الخير أولا ..

ـ مساء النور!!

ـ في الحقيقة أنا مش عارف ـ يا أخ صفوان ـ أبقي معـاك ولا ضدك!.. أحيانا أحس إنك فاهم اللعبة، وبتلعبها بذكاء ووعـي طبقي نبيل جداً.. وأحيانا أحس إنك أهبل وأهطـل، وبيسـتخدموك كأداة لتخدير الناس، وتزييف وعيهم.

ـ يا أستاذ.. من فضـلك رقـق ألفاظـك شـوية Please أنـت جرحتني.. أنا مش منبر في ميدان عام.. كل واحد عنده بقين.. أو حافظ له كلمتين يطلع على قفايا ويخطب.. أنا قفايا ورم يا إخوانا.

ـ عفوا .. عفوا يا أستاذ صفوان .. أنا مقصـدش أي إهانـة لحضرتك.. لأني في الأول أبديت إعجابي ببعض الجوانـب فـي شخصيتك، وشايف إن من واجبي إني ألفت نظرك للفخ المنصوب لك، ولأمثالك، مش لأني أذكي منك ـ لا سمح الله ـ ولكن لأنـي واقف بعيد.. فشايف أكتر.. وأنـت زى اللـي قاعـد فـي شـقة مكمكمة.. كل ما يتعود عليها كل ما يحس أنها عادية.. لأنه بقـي جزء منها.. والمشكلة إني شايف اللي أنت مش شـايفه.. وشـامم اللي أنت مش شمه!

ـ شايف إيه حضرتك؟

ـ شايف إن الوعي لازم يحمي صاحبه. لازم يحصنه، ويـوفر طاقته، لأن الوعي اللي ميحميش صاحبه يبقـي وعـي زائـف.. عدمي.. تقدر تقولي إيه قيمـة القـراءة والخبـرة والمعرفـة إن ماظهرتش على السلوك والطبع والـ..

ـ طب إيه اللي يرضي حضرتك، تحب أروح أرمي نفسي من برج ايفل؟!

ـ بالعكس يا سيد صفوان.. أنت لازم تعيش.. ولازم تقـاوم.. وتعرف أعداءك وقضيتك، وتعرف ازاي توزع معرفتك دي علـى كل محتاج.. عشان متبقاش زى طور الساقية.. فاكر إن كـل مـا يدور ويلف، إن السكة حتخلص.. أو البير حيجف!!

ـ أنت حضرتك شغال إيه بالظبط؟

ـ أنا كاتب قصة.

ـ قصة؟ .. واسمها إيه القصة دي؟

ـ أنت فهمت غلط يا أستاذ صفوان.. هي مش قصة واحـدة.. قصدي كاتب قصصي!

ـ المهم.. نصيحة مني: أوعي تكون بتكتـب الكـلام ده فـي قصصك ليحبسوك!! خلي حد تاني يكتبها لك.. مع السلامة!!

وما كاد يستعيد توازنه، حتى جاءت المكالمة الثانية:

ـ آلو.. أستاذ صفوان!!

ـ نعم .. عايزه إيه أنتي كمان؟

ـ عسل يا خواتي.. عسل!

ـ جرى إيه يا أخوانا.. هي البلد بقت كلها نسوان ولا إيـه؟.. نعم يا رزله؟

ـ على فكره أنا بأموت في الراجل الحمش.. المر.. بحس إني ست و..

ـ هاتي من الآخر.. وبلاش كهن نسوان..

ـ نسوان ؟ ياي.. طالعه من بقك زى العسل!

ـ بقولك إيه يا ست أنتي ولا يا آنسة أنتي.. أنا..

ـ آنسة يا عسل.. آنسة يا سكر.

ـ آنسة ولا عانسة.. ربنا يخدكم كلكم.. ويكـون فـي علمـك بقي.. أنا مش بتاع جواز.. ولا ليه في الستات من أصله.

ـ مفيش راجل ملوش في الجواز.. ولا في الستات.. يعني إيه مالوش في الستات؟

ـ وبعدين في قلة الأدب دي.. أنتي حتردي على سؤالي بسؤال ولا إيه؟

ـ اسأل أنت يا طعم.. يا مسكر بالقوى .

ـ .... إنتي عارفة لو كنتي قدامي دي الوقـت كنـت عملـت فيكي إيه؟

ـ إيه يا قمور !!

ـ كنت ضربتك قلمين على خلقتك..

ـ يارتني كنت قدامك يا طعم.

ـ واحتمال كبير أني أخلع الجزمة واديكي بيها على دماغك!

ـ اعتبر ده وعد ؟

ـ أنتي يا ست أنتي معندكيش كرامة؟

ـ أعمل بيها إيه في حضن عسول زيك؟

ـ تعملي بيها إيه ؟ على فكـرة بقـي .. أنـا عرفـت سـبب عنوستك. إنتي اسمك إيه؟

ـ سميني يا طعم.. تحب يكون اسمي إيه؟

ـ ممكن يكون: رزله.. غلسه.. لزقة.. تنحة!

ـ عسل يا أخواتي عسل.. حطني بس في بطاقتك وسميني زى ما تحب!

ـ وأحطك ليه ولا تحطيني.. دانا أصلا معنديش بطاقة.. بقولك إيه.. حد مصلتك عليّ؟

ـ ياريت يا طعوم.

ـ إنتي باين عليكي من النوع اللي صحته بتتحسن لما يتهـزأ.. تسمحي تقفلي السكة ولا أقفلها أنا في وشك؟!

وما كاد ينتهي من هـذه المكالمـة حتـى رن التليفـون مـن جديد، فرد مغتاظاً:

ـ آلو.. الأستاذ صفوان؟

ـ أنا الأستاذ قطران .. نعم ؟

ـ ازيك يا ابني.. أنا الحاجة شعيده فراج من روض الفرج.

ـ ربنا يفرجها عليكي... وياخدك.

ـ علّى صوتك شوية يا ابني.. أنا مش شمعاك!

ـ "وكمان طرشه.. أمال شعيده ازاى؟" بقولك ربنا يخليكـي.. أأمري يا حاجة!

ـ تعيش يا ابني .. والله أنا عندي مشكلة.

ـ "طبعا ما هو لازم يكون عندك مشكلة.. المهم متكونش في الرُكب".

ـ علّى صوتك شوية.

ـ بقول لحضرتك إيه المشكلة.. عايزه تتجوزي؟

ـ أتجوز؟.. أتجوز إيه يا ابني؟.. دأنا عندي 84 شنة. حناخد زمانا وزمن غيرنا؟

ـ ربنا ياخدكم كلكم.. نعم..

ـ أنا يابني ربنا مديني من وشع، وقاعده في شقة تمليك خمس أوض على النيل ـ من يوم المرحوم ما مات من تلاتين شنة.. لا عندي عيل ولا تيل..

ـ "أقطع دراعي إن ما كانت بترسم على جواز".. وبعدين؟

ـ وبعدين قالوا لي على حكايتك قلبي انفطر.. قلت يابت ليه متغيريش رأيك وتكتبي لواحد زي ده ربع ميراثك.. جايز ربنا يغفر ذنوبك.. ويدخلك الجنة.

ـ "عشم ابليش.. هي الناس فاكره الجنة دي إيه دوران شبرا.. أي حد يروحه؟" هو جوزك كان شغال إيه؟

ـ نعم؟

ـ بقول لحضرتك جوزك كان شغال إيه؟

ـ كان شغال مدير عام في وزارة الري.

ـ "آه.. يعني كان غاسل أمواله كويس؟!

ـ بتقول إيه مش شمعاك.. تعالي يا تفيدة.. علّى التليفزيون شوية. قول يا ابني، بس علّى صوتك

ـ أنا بأقول بدل ما حضرتك تتفشخري.. وتعملي نفسك "ماما نويل" على الهوا كده.. روحي اشتريلك قبر.. ولا كلي لقمة حلوة قبل ما تموتي.

ـ إيه الكلام اللي أنت بتقوله ده؟.. ماما نويل إيه وقبر إيه ومين اللي قالك إني معنديش بدل القبر قبرين؟ دا جزاتي يعني؟!

ـ طبعا يا هانم.. لأنك اشتريتي الدنيا بفلوسك.. وعايزه تشترى الآخرة برضه بفلوسك! ضمنتي السعادة في الدنيا.. وعايزه تضمنيها في الآخرة. غسلتي أموالك في الدنيا.. وعايزه تغسليها في الآخرة.

ـ آخرة لما تلمك .. إنت قليل الأدب.. مترباش.. وأنا غلطانة إني اتصلت بيك!!

ـ غوري يا وليه يا كركوبة إنتي.. هي ناقصة قرف؟!

وأشار للمخرج في الكنترول المركزي بعد أن أغلق الخط: "انزل يا عم بأي أغنية حديثة" .

فيما كان رئيس القناة يتابع الأمر من مكتبه على النيل وهو يكاد يموت من الضحك.. ظل المخرج ومن معه يكظمون ضحكهم، حتى جاءت المكالمة الأخيرة:

ـ آلو .. على فكرة إنت إنسان معندكش ذوق. حد يكلم واحدة ست زى أمه بالشكل ده؟ إنت إيه، مترتبشي؟.. الحق مش عليك.. الحق علينا اللي صدقناك.. وتعاطفنا مع مشكلتك.. دا إذا كان فيه مشكلة أصلا!!

ـ حيلك يا ست إنتي حيلك.. إنتي بالعه إيه .. ضفدعة؟

ـ ضفدعة لما تأكل لسانك.. إنت بني آدم إنته؟

ـ اسم الله عليكي.. إنتي اللي كلك ذوق.. وأدب وتربية!!

ـ غصب عنك يا مجرم.. يا أبو لسان طويل !!

ـــ إنتي عارفة لو مكنتيش ولحدة ست.. أنا كنت مرمط بيكي الأرض!

ـــ أرض لما تلمك.. وتلم أمثالك.. ويكون فـــي علمـــك .. أنـــا حارفع عليك قضية سب وقذف إنت والحمار اللي مشغلك!!

ـــ ارفعي .. رفعك ونش خربان.. وليّه فاضيه..

وضع السماعة قبل أن ترد، ونظر للمخرج نظرة عاتبة، فيمـــا كان رئيس القناة يحاول أن يكبح ضحكه الهستيري، فهاهي خطتـــه تحقق أغراضها، بدأت الناس تكره صفوان بسرعة، كمـــا أحبتـــه بسرعة. وثبت له سذاجة الرأي العام، وسهولة تشكيله. إذ يستطيع بأي مغنٍ يصيح بكلمتين تافهتين أن يغير اتجاهه، وبأي لاعب كرة أتيح له ـــ ذات يوم ـــ أن يركل ركلتين في "الجول" أن يحقق مـــا لم يحققه فيلسوف أو ثائر!!

كان وقت البرنامج قد قارب على الانتهاء .. يومان أو ثلاثة، ويفكـــر في لعبة جديدة ، فلماذا لا يفكر في المدن الجامعية، يتعاقـــد مـــع بيـــت طالبات.. يفتح كاميراته على ميدان عام.. يشترى هامش وقت راقصة أو لاعب كرة، فيصورها وهي تأكل أو تنام.. أو يصوره وهو يتـــدرب، أو يتعامل مع الجماهير.. كل الخيارات مفتوحـــة ومقبولـــة، والمهـــم فـــي التفاصيل.. في طريقة التقديم والعرض.. أما الأفكار فليدعها ملقاة علـــى قارعة الطريق، وليتنافس على أنقاضها المتنافسون!

وما إن أتي صباح جديد، حتى عرضت القناة اعتـــذارًا رســـمياً عما حدث بالأمس، فلا أحد يعرف ما حدث لصـــفوان بالضـــبط. وما الذي غيره بهذه السرعة وبمثل هذه الدرجة؟ هل هي عيـــوب

متأصلة فينا كمصريين، أم هي محض سلوك فردي ـ مرحلي ـ لا يقاس به أو عليه؟

لهذا وذاك سنضطر آسفين بالاكتفاء بالصورة والحركة وحدهما.. ولن نسمح بفتح الخطوط مباشرة مع السادة المشاهدين منعا لتكرار ما حدث بالأمس، وحفاظا على قيمنا وتقاليدنا الأصيلة!!

وبهذا ضمنت القناة استمرار اللعبة.. وإحكام الدور ، وإراحة القيادات .. غير أنّ شيئا وحيداً خرج عن الدور ، ونطاق التوقع وهو جفاف ينابيع الإعلانات والاتصالات ، لكن السيد / W.G كان يتوقع كل الاحتمالات ، ويعرف أن المعلن ـ بدوره ـ جبان، يحسبها كما يحسب جحا غنماته!

لذلك لم يعد أمامه إلاّ أن يضرب ضربته الأخيرة.. فنقل "اللوكيشن" إلى جبل المقطم، بعد أن انتهي قسم الديكور من عمل ماكيت من الفوم والكرتون لشقة صفوان، ونقل إليها كل شيء ، ولم يبق لصفوان ـ أن قُدر له أن يعود ـ إلا كراتين الهدايا.. وفوارغ المعلبات وهشيم الدنيا..

وبهذا يطوى صفحة صفوان

وبديل صفوان

وظاهرة صفوان

إلى الأبد.

الفصل الثاني والعشرون

قبل أن ينتصف الليل، كان صفوان قد قرر الهروب، ولم تعـد أمامه سوي بعـض التفاصـيل والإجـراءات البسـيطة، فحـل قيده، وتزود ببعض الماء والغذاء.

كان يعرف أن الفجر هو أضعف حلقة في وعي الحرس، حيث ينعدم التركيز، وتبدأ الحركة، ويصـبح صـوت الأذان، وحركـة الناس، ستاراً لكسر الأبواب، وسبيلاً للفرار.

لكن الاتجاهات كانت قد اختلطت في عقله، فلـم يعـد يعـرف الشرق من الغرب، ولا اليمين من الشمال، ففـي لياليـه الطويلـة ــ والمريرة ــ كان يشم رائحـة يـود، ويشـعر بوجـود بحـر قريب، بحر هائج مديد، وفي أحايين أخر، كـان يسـمع صـوت كروان وحيد، يتجاوز الصحراء الممتدة، وكلاباً تقلد الذئاب، وحين يصمت الجميع كان يسمع هسيس الليل، ويشم شذي الفجر، وبرودة الصحراء الناعسة!

لم تكن لديه خيارات كثيـرة ، فليهـرب إذن إلـى السـلوم أو الفيوم، مطروح أو الواحات ، الطريق الزراعي أو الصحراوي، وهناك تبدأ الخطوة الثانية.

وقبل أن ينتهي الناس من صلاة الفجر، كان صفوان قد تسلسل إلى حديقة الفيلا.. ورأى الخفير مضجعا أمـــام النـــار، فتحســـس طريقه إلى الخارج، وما كاد يصعد السور الأسمنتي حتى نبحـــت الكلاب، وحاولت أن تقطع سلاسلها، وتهبر كعبيه، فتجمدت الدماء في عروقه، وما كاد يسمع صوت الخفير وهو يصيح: مين هناك؟ حتى رمي بنفسه خارج المعتقل محدثا جلبة نبهـــت الخفيـــر إلـــى مكانه فجرى نحوه، وهو يصوب بندقيته وينادي على زميله..

ــ واد يا درداوي.. هات سلاحك يا واكل ناسك!

ما كاد يطلق الطلقة الأولي حتى انتبه الجميع إلى الخطر، وخـــف المصلون ــ وجلهم من الحرس والخدم ــ لنصرة زميلهم. غير أن صفوان كان قد تستر بالظلام والأشـــجار الصـــحراوية وواصـــل الفرار حتى وصل إلى طريق مرصوف، ومن هناك ركـــب إلـــى "الرست هاوسِ" على الطريق بين القاهرة والإسكندرية، حيث وجد سيارة عامة لم يكن محصلها يتوقع أن يركب أحد من هنا.. فركب إلى ميدان التحرير، وليس في جيبه مليم يركـــب بـــه إلـــى حـــي عابدين، فأخذ طريقه إلى هناك مترجلا.. وهو يشعر كأنـــه طـــائر يعود إلى عشه، لكن شعوراً بالخوف والمرارة كان يراوده دون أن يحصر سببه أو يدرك نهايته.

ماذا يفعل لو وجدهم هناك؟.. وكيف يـــواجههم؟ هـــل يـــدعو لمؤتمر صحفي، يذهب إلـــى البـــوليس؟ مديريـــة الأمـــن؟ وزارة الإعلام؟ النائب العام؟

متي يبدأ الخطوة الأولي، وكيف ينهيها؟ كانت القناة قد طردت البديل واستغنت عن خدماته، بعد أن انتهي البرنامج، وبدأ الإعداد لبرنامج جديد.. برنامج "لا يخدش الحياء" ولا يتعارض مع "القيم" و"التقاليد"! وكان البديل قد أدي دوره على أكمل وجه، فأغضب الجميع، وصدم كل من تعاطف معه، أو حاول الدفاع عنه، وباتت رأس صفوان مطلبا لقطاعات كثيرة من الناس. فهو لم يهزم ذاته وحدها.. وإنما هزم طبقة، وخان جيلا بكامله!

لم يتخل عن حقٍ يخصه، وإنما عن قضية مات وسجن من أجلها الآلاف!! وانكسر بسببها الملايين.. طبقة كاملة سعت نحو النور فحرقتها النار، ثم تحققت هواجسه حين رأي من يتأمله باحتقار، ويبصق باتجاهه، ومن يسبه من بعيد ويلقي عليه بأعقاب السجائر. وقبل أن ينتهي من ميدان التحرير، وجد من يحيط به من الشباب والرجال ومن يحاول أن يعتدي عليه بالضرب، ويتهمه بالمروق والخيانة!!

كما وجد من يسبه بأقذع الألفاظ، ويحاول أن يدفعه ويرميه على الأرض!! في البداية.. لم يفهم صفوان سر كل هذه المشاعر العدائية.. كان يتصور عكس ذلك، يتوقع أن يحملوه على الأكتاف. فقد رفض أن يخدعهم، وحبس من أجلهم في جب حقير، ماذا يملك ليعطيه؟ ماذا كان يتوجب عليه فعله ولم يفعله؟.. فلا هو ابن شداد ولا زرقاء اليمامة!!

وعلى مقهى ريش وجد من يستدعيه ويتأمله.. وحين تأكد من شخصه أدخله المقهى، وانهال عليه ضربا وعضا.. وكلما عرف

الناس بوجوده هجموا على المقهى وأوسعوه ضربا ولطما.. وجـد من يرقد عليه ويحاول خنقه، ومن يشده من ساقيه ويسحله علـى الأرض، ومن يمزق ملابسه أو يلقي عليه بشـاي سـاخن، فظـل يطول ويقصر، ينكمش ويتمدد، والناس تتكوم عليه، وتعـض كـل ما يظهر منه، وهو ذاهل مصدوم.. لا يعرف ماذا يفعل ولا كيـف يبدأ.. كأنه في كابوس.. في برزخ يفصل بين الحياة والموت..

ثم حدث سكون مطبق.. سكون لم يعد يسمع فيه سـوى دقـات قلبه. سكون سرمدي مخيف، لا تبدو له نهاية.. ولا بداية!!

ثم وجد من يضرب خديه ويناديه باسمه:

ــ صفوان.. صفوا..ا..ان.. صفوا..وا.. وان!!

وحين فتح عينيه، عرف أنه ما يزال في المقهى، ورأى رجـال الإسعاف يضمدون جروحه المتفرقة، وسـمع لغطـا مـن حولـه وصياحا حاسما لصاحب المقهى يطالبهم بالخروج ، وسمع ألفـاظ العطف والاحتقار تحيطه من كل جانب.. لكن ما كان يعزيه ويبقيه على قيد الحياة.. هو شعوره العميق بأن من ضربه لم يكن يضرب فيه "صفوان عبد الفضيل" وإنما يضرب كل من خدعوه، وأهـانوه وأجهضوا أحلامه ".. كانوا معذورين فقد ساهم في خداعهم، حـين خدع نفسه، وسكت حين كان يجب أن يتكلم"!

هكذا أقنع صفوان نفسه، وهو يغادر المقهى مربوطـا بشـاش كثير..

كان صاحب المقهى قد شعر بـالإثم والمسـئولية، فحـاول أن يصالحه بأي شيء يأكله، أو يستر به جسده، لكن صفوان رفـض

بكبرياء، أذهل الغاضبين، وكسب ود المتعاطفين، حاول بعضهم أن يسانده إلى البيت، لكنه أصر على الرفض، وقال إنه يود أن يمشي وحيدا، ثم أخذ طريقه متحاملاً إلى بيته، كما يتحامل الفيل إلى مرقده الأخير. لكن غصة في قلبه كانت تملأ فمه بمرارة.. ودمع كظيم.. زاد من مراراته يقينه بأنه خسر حربه الأخيرة.. ولم يعد هناك من يسمعه، أو يفهمه، أو يسأله الحقيقة!!

كما أيقن أنه مستهدف، وعليه أن يتخفى ويتقنع، إن أراد أن يرى الشارع في مقبل الأيام.

فالناس لا تنسى كل شيء، وإن نسته فهي لا تنساه مرة واحدة.. فتكتفي بالعناوين، أو تقف عند الظواهر.. لأنهم غير مستعدين لدفع ثمن الحقيقة!! أما الآن.. فكل ما يتمناه ألا يخرج من البيت أبداً، أو يرى أحداً، لذلك صرف النظر عن المؤتمر الصحفي، أو الاتصال بأي مخلوق.. وتمنى أن يولد من جديد ليتدارك أخطاءه وخطاياه..

وفيما كانت أضواء المساء تومض من حوله.. لاحظ بقايا صوره على الشوارع وواجهات المحال، وكلما اقترب من عابدين زادت الملصقات الممزقة وعبارات التنديد والكراهية، وما كاد يدخل بيته المعتم حتى استل سكينه الذي شحذه في الاعتقال، وقرر أن يقتل من يمنعه من الدخول، وساعده الظلام والأربطة التي لف بها رأسه ومنخاريه المتورمين على الدخول دون أن يعرفه أحد.. كانوا قد غادروا قبل يومين!!

وما كاد يقف أمام باب شقته، حتى شعر بارتياح عميق، وسكينة لم يشعر بها من قبل.. آن له أن يستريح، ويصحو وقتما شاء..

آن له أن ينسي ما جرى .. بعد أن انسحب الغزاة بكاميراتهم البشعة وأصواتهم المنكرة ورحلوا إلى غير رجعة، لكنه ما كاد يدخل الشقة، ويضيء النور حتى صدمه ما رأى .. فقد أخذوا كل شيء: الهدايا والأجهزة وعينات الدعاية والإعلان ولم يتركوا سوي الفوارغ.. حتى ملاءة السرير أخذوها، ولم يتركوا شيئا في المطبخ يمكن أن يؤكل أو يُشرب.. حتى حفر الكاميرات ولافتات الدعاية لم يرمموها.. وتركوا البلاعات مسدودة، والأبواب مكسورة، وأعقاب السجائر في كل مكان. لقد خربوا حياته.. وهاهم يحولون كل ما له إلى أنقاضٍ وأطلال.

كان يدرك أنه لا يكفي المرء أن يكون طيبا ليحيا في سلام.. وكأنما البشر ما خلقوا إلا للصراع والمقاتلة، وها هو يحاول أن يكبح غيظه وينسي ما جرى كي لا يصاب بالجنون.. فارتمي على السرير، وهو لا يعرف ما يتوجب عمله الآن.. أو ما يمكن تأجيله!!

هل يأخذ السكين ويذهب إليهم؟.. يذهب إلى من؟ ويبدأ بمن ؟ بعد أن كثر أعداؤه وتفرعوا؟ هل يقتل نفسه فيريح ويستريح؟!..

فكر في كل الاحتمالات، وهو يضع رأسه المهموم على الوسادة المتسخة، ويجيل النظر فيما حوله، وكأنه يراه لأول مرة..

كانت الجروح والرضوض قد نشرت آلامها في سائر الجسد، وبات من المستحيل النوم بها.. فإن تسامي عليها، داهمته مهانة الاعتقال والتجويع.. فظل يئن كنمر جريح، وكلما غفا لحظة، هب

مرتعباً ناطقا بكلام غريب.. لا يمكن وضعه في جملة، أو شـــرحه في قاموس.

لم يكن أمامه سوى أن يعيش ويستمر.. ليس حباً فـــي الحيـــاة، وإنما رغبة في التحدي، وربّما في الانتقام!

وقبل أن يطلع الفجر سمع طرقا على الباب، ومحاولات لفتحه، فهب من نومه مفزوعاً وهو يقاوم الألم:

ـ مين؟

ـ افتح..

لابد أنهم من رجال القناة .. أتوا ليرجعـــوه إلـــى الصـــحراء . أو من زوار الفجر. صاح:

ـ أنت مين؟

ـ أنت اللي مين؟

ـ أنا صفوان عبد الفضيل!

ـ وأنا صفوان عبد الفضيل!!

فكر صفوان أن في الأمر خدعة ما، فاستل سكيّنا واقترب مـــن الباب وهو لا يعرف إن كان يحلم أم يهذي!!

ـ أنت عايز مين ؟

ـ أنت اللي عايز مين.. إيه اللي جابك شقتي؟!

بدا الصوت مخمورا، لكنه يشـــبه صـــوته!! وحتـــى يـــتخلص صفوان من كل الهواجس فتح الباب فوجد شخصا يشبه:

ـ مين ؟

ـ أنت اللي مين ؟

ـ عايز إيه؟
ـ أنت اللي عايز إيه؟
ـ دي شقتي !
ـ ودي شقتي !!
اختلط الأمر على صفوان فلم يعرف إن كان يكلم مرآة، أم يكلم شخصا آخر من لحم ودم، ولكي يثبت أي يقين، دفعه فاندفع.. صاح محتداً :
ـ أطلع بره.
ـ أطلع من شقتي؟.
ـ بقولك أطلع بره لأجيب كرشك.
ـ أنت تجيب كرشي .. طب والله لأجيب كرشك إنت..
وظلا يتصايحان ويتدافعان ويصطدمان بالباب والجدران، حتى صحا الجيران وصعد بعضهم إلى السطح ليستطلع الأمر، وكان من بينهم نوال، لكنها لم تعرفه لأول وهلة!!
كان العراك قد بلغ منتهاه. فركب البديل فوق صفوان مرة، وركبه صفوان مرة وظلا يتدحرجان داخل الشقة وخارجها، والناس تتفرج، فيما كان قرآن الفجر يتناهى من بعيد.. وهما ينتقلان من النور إلى العتمة، ومن العتمة إلى النور، ولم يستطع أحد أن يفصل بينهما.. فيما كانت الخمور وسوء التغذية، قد أجهدت البديل، فطاشت ضرباته، لكنه شعر بأنه قد تورط في مشاجرة، وما عليه إلا أن يستمر في دوره، حتى بعد أن انتهي كل شيء.

كانوا قد أوهموه بأن صفوان الحقيقي قد مات، ومـن حقـه أن يرث كل ما كان له، أما صفوان فقد شعر رغـم تشـوش عقلـه، واضطراب أعصابه، أنه يخوض معركتـه الأخيـرة وعليـه أن ينتصر فيها، ويدافع عن آخر خنادقه في هذه الدنيا.

لكن ما أغضبه بحق، وأدمي قلبه، أن الجيـران قـارنوا بـين المتعاركين فانتصروا للبديل، حتى بعد أن تخلص صفوان من كـل الضمادات والأربطة.. ولو كانت هناك مرآة لعذرهم جميعا، فقـد غيرت اللكمات تضـاريس وجهـه، فنفخـت منـاطق، ولونـت مناطق، ولو قدر لأمه أن تراه الآن ما عرفته..

وما كاد يطيح بآخر برجٍ في عقله، أن "نوال" لم تعرفه.. ولـم تميز بينهما وهما يتقلبان على الأرض.. ولو قُدر لها أن تسـتفتي قلبها وحدسها لعرفته.. ففيم كان يركب فوق البـديل ويكيـل لـه اللكمات، سمعها تشتمه، ورآها تدفعه بقدمها في ظهره وتصيح:

– سيبه يا مجرم.. يا متوحش!!

فركب البديل فوقه، وضربه على جرح كان يتعـين خياطتـه، لكنه لم يشعر بأي ألم.. وكأن الغضب الساحق قد ضخ في جسـمه برميلا من المسكنات.

ولا يعرف ما حدث بالضـبط، لكـن مـا حـدث لـم يذهلـه وحده، وإنما أذهل الجميع وجمدهم في أماكنهم، فقد وجد في يـده قناع البديل، فرماه مرتعبا، وقد داهمه شعور بأنه قطع رأسه.. لكن دقائق قليلة كانت تكفي ليعرف الجميع كل شيء!!

كان البديل قد نزل عن صـــفوان وارتمـــي بجانبـــه مستســـلما لقدره، فيما ظل صفوان راقدا لا يستطيع أن يقف، ولا يرغب فـــي المقارنة بين الوجه والقناع.

فران على الجميع صمت عميق.. شخصت فيه العيون، وتوقفت ضربات القلب، وكانت "نوال" أول من تحرك، فشعر صفوان بهـــا وهي تحاول أن تنهضه عن الأرض، وكأنها تعتذر عن جهلهـــا.. وساعدها آخرون في مساندته إلى سريره.. فيما راح البديل يجهش ببكاء مرير، شعر الناس بصدقه فلم يضربوه .

كان أذان الفجر قد دعـــا النـــاس للصـــلاة، فنزلـــوا بأســـئلتهم وصمتهم، ووجدت نوال نفسها وحدها، فخافـــت علـــى ســـمعتها، وتركت صفوان منهارا على سريره، والبديل مازال ينتحب كطفل يتيم، فيما كانت أضواء قصر عابدين تتألق من بعيـــد.. وترســـل إعلانات الأسطح الكبيرة بأضوائها المتقطعة علـــى جســـد هامـــد، خامد، وقناع فقد حرارته.

وضل طريقه إلى ركن قصي.

الفصل الثالث والعشرون

لم يستطع صفوان أن يغفو لحظة واحدة، ربّما لأنــه يريــد أن يعرف كل ما جرى ، ويفسر كل ما حدث، وربما لأنه لم يســتطع أن ينسي كل ما حدث! فقد حاول أن يحصـــي خســائره فوجــدها فادحة، وحاول أن يتسامي ويضعها في جراب خبرته فوجدها أثقل مما كان يتوقع.

ثلاثون عاما من الوعي قضاها في مناطق رمادية فــاترة، لــم يتورط في مغامرة ولم يتوسط في خناقة أو مصالحة!

كان يقف ــ بفطرته ــ بين الأبيض والأســود، بــين الحــار والبارد، فلا طال "عنب الشام، ولا بلح اليمن" وشــيئاً فشــيئاً فقــد إحساسه بالزمن والمسافة، ويئس مما لا يستطيع بلوغه!

لم يكن يتوقع أن تحدث كل هذه المآسي في يوم واحد.. ولكنهــا حدثت!! وما عليــه إلا أن يعالجهــا بــأكبر قــدر ممكــن مــن الحكمة، وأقل جهد يمكن بذله وإيتاؤه .

ربّما تمني ــ في دخيلته ــ أن يختبر هذا، أو يجرب ذاك، لكن ليس بكل هذه القسوة والفجائية!

كان كمن يطلق النار على رأسه ليجرب خبرة المــوت، لهــذا ظلت الأحداث تجرى أمام ناظريه، كما تجرى شرائط الأحلام.

ولكي يمسك بأي حقيقــة يمكــن حصــرها .. تســاند علــى الجدران، وأضاء النــور، ليجــد الخــراب يحاصــره مــن كــل جانب، فخرج من الشقة حين سمع أنينا يتردد ليجد "البديل" ما زال راقداً على الأرض، لا يستطيع أن يقوم ، وربما لا يرغــب فــي ذلك، فتعكز إليه وهو يشعر بــأن قدرتــه علــى الإبصــار قــد ضعفت، ولم تعد لديه القدرة حتى على الكلام!!

وما كاد البديل يشعر بوجوده، حتى انهــارت مقاومتــه، وراح يجهش ببكاء يمض الروح، ويرجف البدن، وكأنه طفل يتيم فقد كل ما كان له في هذه الدنيا.

وحينذاك شعر صفوان بذنب لا يعرف مصدره ، ربّمــا لأنــه شارك في ظلمه. أو بالغ في إهانته أمام الناس.. وربّما لأنه نــزع قناعه، أو حرمه مما كان يتخيل أنه حق من حقوقه.

كان عليه أن يتدبر الأمور، ويعرف أنه ضحية مثله، ولابد أنــه خضــع بــدوره للابتــزاز، والغوايــة، حــين أوهمــوه بالمــال والجاه، وعشموه بالشــقة والشــهرة، وهــاهم يلفظونــه كقشــرة البندق، بعد أن أكلوا لبابه.. وغيروا خرائطه وطبعه.

كان صفوان يوقن أننا جميعا نلبس هذا القناع، كــلٌ بطريقتــه لذلك حاول أن يقنعه بالدخول حتى الصباح فــرفض، وحــاول أن يقدم له ما يمكن أكله فلم يجد!!

كانت رائحة الخمر ما تزال تفوح من جسد البديل، كأنه تحمـم بها، لكن وعيه كان حاضرا، كأنه لم يذقها في حياته!

وحين هدّه التعب رقد بجواره على بلاط السـطح، وهالـه أن السماء ما تزال تنبض بالنجوم البعيدة، والآمال الممكنة.

رجاه صفوان أن يزوره كلما ضاقت به الأحوال، أو أراد يومـا أن يصارح صديقا.

ثم بحث في جيبه عما يعطيه فلم يجد، لكن الرجل أعفاه من كل حرج، حين وقف على قدميه، وشعر ـ فجأة ـ بـأن هنـاك مـا يتعين عمله، بعد أن أدرك أنه ارتكب ـ بـدوره ـ جريمـة دون أن يـدري حـين حـرم شخصـا ـ لا يعرفـه ـ مـن اسـمه وكينونته، ونافسه حتى على بيته ورزقه.

لذا عاد إلى صفوان معانقا ومعتـذراً، وهـو يكـبح عشـرات المشاعر المتضاربة التي عصفت بخاطره، وحين غـادر المكـان تساند صفوان على الجدران حتى دخل شقته ، وقبـل أن يرتمـي على السرير هامداً سمع رنين التليفون فرفع السـماعة، وهـو لا يصدق أنهم تركوا الحرارة، ولم يقطعوا الأسـلاك كمـا قطعـوا روابطه، وحطموا حياته!

ـ آلو ..

ـ اسمع يا صفوان.. أوعي تفتكر أنك هربت مننا.. لا .. إحنا اللي سيبناك لأنك بقيت ورقة محروقة.. سيجارة واتشربت، جزمة ودابت!!

ـ مين اللي بيتكلم؟

ـ مش مهم تعرف. المهم تتأكد أن سكوتك حيساوى حياتك..
أي اتصال بفضائيات، أو وكالات، أو صحف أو.. أو.. إحنا مش مسئولين عن حياتك. مفهوم؟ أنت في نظر الجميع ميت، ولو مت تاني مش حتلاقي حد يرمي عليك دمعة باردة. اشتري حياتك يا صفوان.. واقلب الصفحة .. سلام!!

ـ آلو .. آلو ..

وضع صفوان السماعة وهو يشعر أن معاركه لم تنته بعد، كان ـ بالفعل ـ قد قرر السكوت، وطي صفحات سوداء، لكن يبدو أن ما يدركه العقل قد لا يدركه القلب. وها هم من حارب من أجلهم يتنكرون لتضحياته، ويقفون في صف أعدائه! لمن يقاوم إذن ويراهن بحياته؟.. لمن يحفر كل هذه الخنادق الأمامية؟ وما قيمة أن يلعب كل هذه الأدوار حتى النهاية؟.

بل ما قيمة أن يأكل ، أو يشرب، أو يعيش؟.. إذا كانت كل معاركه قد باءت بالخسران..

وعادت كل النصال السامة إلى صدره؟!

الفصل الرابع والعشرون

ظل صفوان راقداً بثيابه الممزقة، وجروحه المتجلطـــة، هامـــدا كصقر جريح.. لم يعد يحفل بشروق الشمس أو غروبها ، بعـــد أن فقد الوقت دلالته، والأكل طعمه، والليل شـــذاه!! كـــان عليـــه أن يغتسل، ويعيد ترتيب وعيه وحياته، إن أراد ــ فعلا ــ أن يواصل الحياة.. فوجد من العزيمة ما يعينه على ذلك، لكن قواه خذلته، فلم يستطع التخلص من تلك النفايات التي تحيطه، وتزحم ذاكرته:

أكواب بلاستيكية منسحقة، بقايا بيتزا تعفنت في علبها، أعقـــاب سجائر وقشور بندق، أشلاء "تكة" و"كنتاكي" و"ماكدونالدز"، كراتين شامبو ومعلبات ماكريل، مضادات حموضـــة، حفاضـــات أطفـــال وكريمات لإطالة الشعر وأخرى لإزالته.

تمنى صفوان لو يكنس كل ذلك قبل أن ينـــام، فـــأتى بمكنســـة قديمة، كانت في الأصل سارية لعلم، وكنس ما حوله، وكأنه يكنس جثثاً تعفنت وحان دفنها.. فتح الثلاجة فوجدها خالية إلا من طعـــام عفن، وجبن قديم، فهل يخرج للناس شاهراً سيفه؟

كانت معدته قد تعودت على الجوع، وبات عليه أن يعيد فطامها على مهل، فشرب آخر كوب شاي لديه، ودخل ليستحم.

وما كادت المياه الباردة تسقط على جروحه المفتوحة، حتى شعر بسياطها تلهبه، ومع ذلك شعر بارتياح لم يشعر به قبلا، ربما لأنه يشعر بنسائم الحرية، وعبق الإرادة، وربما لأنه يستطيع — الآن — أن يقول لا .. وأن يتجرد من كل ملابسه — وأقنعته — دون أن يخاف جمهوراً ، أو يخجل من كاميرا..

طقوس صغيرة كان يمارسها ببساطة، قبل أن يهجم المغول، ويغير المغيرون. وها هو — بعد كل ما جرى — يعيد اكتشاف ذاته، ويعرف أن الحرية هي أقرب القيم البشرية للفطرة، وأبعدها عن المنال!!

وتساءل عن قيمة العقل بغيرها؟.. قيمة المعرفة ؟.. قيمة الوطن والوجود؟ وهاله أن تتمتع بها الطيور والدواب، ولا يتمتع بها البشر!

كان صفوان يعرف أن صوته لا يصلح للغناء إلاّ في الحمام..

فغني .. كما لم يغن من قبل..

غني بصوت عالٍ خالٍ من المعني، فخرج الصوت مزيجا من الوتري والنحاسي، ومن الشجن والفرح، في سيمفونية هو سامعها الوحيد.. ومالكها الوحيد، فهل يحرص على المعني؟ وما معني أن يصل إلى أي معني؟

ملعون أبو المعني!!

كان عليه أن يرتدي ثيابا نظيفة ، وأن يفتح معدته بأي شيء، وظل يتجول عاريا في شقته، وكأنه ولد من جديد، تمنى لو يطير.. لو يتجاوز الغمام لكنه شعر بأنه لم يتحرر من الداخل بعد، وأن معركته الأخيرة يجب أن تكون مع نفسه. مع العادات والمفاهيم والقيم المضللة التي تبناها، وابتلعها تقية أو نفاقا.. تلك التي جمّلها الآخرون وجعلوها خيارا وحيدا.. من يخرج عن قضيبيها الضيقين كافر أو جاحد!!

كان يدرك أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش وحيداً في هذه الدنيا.. لكن عليه دائماً ألا يغرق في لزوجتها حتى المنكبين ، أما كيف يقيم هذه المعادلة العسيرة بأقل قدر من الخسائر، وأكبر قدر ممكن من الحكمة؟ فهذا هو السؤال الذي لم يجب عليه سقراط، ولم يحسمه من أتوا بعده!

وعلى سريره البارد كاللحد، تذكر بعض ما جرى فداهمته الحكمة، وطاوعته الأماني، فعرف أن عجائب الدنيا سبعة، أولها الإنسان .. وآخرها الإنسان !! "ذلك المخلوق الغامض، المراوغ المتناقض، الذي لا يصوّر الشيطان إلاّ على شاكلته، ويصبح مرعبا إن وضع نابين من بلاستيك، أو أخفي وجهه أو عينيه! كائن يطمع فيما تملك، وينازعك حتى على جسدك!

إن أتيح له أن يسلبك زوجتك ما تأخر، فهو يحاربك حين تضعف، ويهادنك حين تقوى.. وصراعه معك مرهون بضعفك وقوته، وقوتك وضعفه!!

وما كرمه المفرط، أو بخلـه المحـبط، إلاّ تجليـان للأنانيـة والتقنع، فهو لا يهبك إلاّ ليفوز بإطرائك، ويوهمـك بأنـه أفضـل منك، ولا يقتسم معك بالعدل، حتى تظل في حاجة إليه!! أما أنـت فتتمنى فقره قبل أن تتمنى غناك.. وتطالب بالحق والعـدل، حتـى تركبهما وتدوس على غيرك!!

حتى زوجتك وأولادك: إن حرمتها من رجولتك ــ وأموالك ــ خانتك، وإن حرمتهم الميراث هجروك، وقاطعوك في شـيخوختك، فأنت رائع بقدر ما تعطي، كريم بقدر مـا ترمـي، حنـون بقـدر ما تمنح!!

كائن مربوط من عواطفه، كما تربط البقرة من أنفها، يسـتطيع أي خطيب مفوّه، أو دجال مموّه، أن يسحبه وقتما يريد، مخلوق لم يتوقف يوما عن حرب أخيه؛ فإن صادقته ــ لتتجنب شره ــ بحث عما له فيك، وبحثت عما لك فيه!! أما هو فيريد أن يثبـت لنفسـه ــ وللآخرين ــ أنه محبوب ومطلوب، وأن العيب ــ كل العيب ــ فيهم هم، لا فيه ولا فيك!!

وما صبره على بخلك "وغتاتتك" وعدم تماثلـك وامتثالـك، إلاّ ليستحلب آخر ما له فيك!

مخلوق لا يعرف الغيرية، ولا الصبر الجميل.. فقد نـافق أمـه لترضعه، وهادن أباه ليعلمه ــ ويورثـه ــ ولا يطيـع خالقـه إلاّ طمعا في جنته، ورئيسه إلاّ ليضمن راتبه، وحكومته إلاّ خوفا مـن سجونها. إن كان رجلا طمع في كل النساء.. وإن كانـت إمـرأة طمعت في بعض الرجال!!

وما أدبه البادي، ووجهه النادي، إلا قناعا يحتمي خلفــه إلــى حين. كائن يولد عاريا مسلوخا ، ويموت كذلك!

إن سقط من طابقين مات!

وإن وثب مترين أصبح بطلا ــ أولمبيا ــ على قومه!!

فهل هو الدهاء والحيلة، أم الغباء والغيرة؟!"

شعر صفوان ــ فجأة ــ أنه أضعف مما كان يتصــور، ربّمــا لأنه أدرك أنه من لدن ذلك المخلوق.. وجزء من بصاقه. وتساءل عن قيمة أن يظل المرء يقاتل ليحصل ــ في النهاية ــ علــى مــا حسمته الصراصير في جحورها ؟

ثم تساءل عما يمكن أن يفعله في قادم الأيام..

فهو لا يستطيع أن يرى الشــارع حرصــاً علــى حياتــه، ولا يستطيع أن يتقنع ما بقي له من حياة!

فكر أن يتخفى في زى فلاح، أو يتنكر في زى امرأة، وفكر أن يغير من ملامح القناع الذي تركه البديل، وفكر أن يخرج بعــد أن ينام الناس، ولكن إلى متي يفعل ذلك ولماذا؟..

كان أول ما فعله أن بحث عن باقي الألف جنيه التــي أخــذها كعربون ولم يصرف نصفها، لكنه لا يذكر أيــن أخفاهــا.. ربّمــا كانت تحت الثلاجة، أو في قاع مقعد، تحت السرير أو في طيــات ملاءة. لبس ملابس نظيفة، وتفقد كل ما حوله.. بحث في كل مكان هدته إليه الذاكرة فلم يجد شيئا.. إذن فقد أخذوا كل شــيء، حتــى أجرته كعبد مطيع. ماذا ينتظر إذن؟ وكيف يقتلهم جميعا؟!

فتح غرفة المهملات فرأى محبسه القديم.. ووجد كل شيء في مكانه.. تذكر كيف كمموا فمه بلاصق عريض، ونقلوه إلى الصحراء. وكيف كان الضوء يأتيه شحيحا فلم يعرف إن كان ضوء الصباح أم المساء؟ لكنه خاف على بصره، وخاف على وعيه، بعد أن فقد حاسة الزمن، وحاسة المكان، وكاد يفقد حاسة الكلام!!

ما أبعد المسافة بين الأمس واليوم .. بين البداية والنهاية فبالأمس القريب، كان المكان يضج بالحياة والبذخ، وها هو يلوذ بالصمت والموات.. لا قلب يخفق، ولا تليفون يرن، لا صوت يسمع، ولا طير يرف!! ماذا حدث بالضبط؟..

لم يطل صبره.. إذ ما كاد يرقد على السرير مستسلماً للنوم، حتى رن جرس التليفون فرد بلهفة:

ــ آلو

ــ ازيك يا صفوان !

ــ مين ؟!

ــ أنا نوال.

ــ نوال مين؟

ــ اخص عليك .. مش عارف نوال مين؟

ــ آه.. لا مؤاخذة.. ازيك يا نوال .. هو أنتي يعني اللي عرفتيني؟ معلهش اعذريني!

ــ أعذرك لحد إمتي بس؟ .. عموما أنا شايفاك قدامي دلوقت!!

ــ شايفاني ازاي؟ .. هم لسه بيصوروني؟ اتكلمي!!

ـ شايفاك في تليفزيوني طبعا.. وبالأمارة كنت راقد على السرير ولما سمعت التليفون قمت ترد!!

رمي صفوان السماعة من يده، وتطلع حوله متنمراً.. ماسحا كل الأركان والدواليب بنظرات مستريبة، باحثة عن أدوات الجريمة!!

إذن فالكلاب مازالوا يلعبون معه لعبتهم القديمة، ويصورونه في الخفاء بعد أن حطموه، وهدموا أوتاده.. لم يكفهم ما فعلوه، وهاهم يعاودون أحابيلهم، لقد شم روائحهم النتنة، وآن له أن يكيل لهم الصاع صاعين!!

ـ آلو.. صفوان.. رد عليَّ يا صفوان.. متفهمش غلط.. آلو..

ـ من فضلك يا نوال ماتدافعيش عن حد.. حطي السماعة.. واتصلي بعدين..

وقبل أن يسمع المزيد أغلق الخط، وبحث عن بلطة صدئة، كان قد وجدها في القمامة، وبدأ بالطاولة القديمة فحطمها.. وبالبلتكانات والستائر فأسقطها على الأرض.. وبضربة قاصمة أنزل النجفة القديمة، وجرى إلى دولاب أمه فأسقطه على الأرض، وحطم أركانه الأربعة، وهو يري الخشب يتأوه، ويتناثر تحت بلطته الباترة.. ثم قلب الثلاجة على وجهها فتحطمت أطباق، وانكسرت أكواب.. ونزل على مكتبته الصغيرة فسواها بالأرض.. قبل أن يقلب السرير، ويمزق المراتب والمخدات، حتى فازة الورد الصناعي لم تسلم من ضربة محكمة، وبعد أن هده التعب، وكاد قلبه يتوقف غيظا، بحث عن الكاميرات المبثوثة فلم يجد شيئا..

وبدلا من أن يُهدئ ذلك من ثورته، زادها اشتعالا.. فقد وضعوا كاميرا في كبسولة ورموها في معدته، فكيف يعجزون عن وضعها في علبة سجائر.. أو فازة.. أو حتى علبة كبريت!! وهل يعجز عبيد التكنولوجيا ومستوردوها المحدثون عن فعل أي شيء؟

قام صفوان وواصل الضرب والتحطيم، حتى أتى على كل شيء في معبده الصغير، وحتى ينام منتصرا.. ألقى بكل شيء إلى الشارع، فسمع صراخا، وسبابا وتساؤلات، لكنها لم توقفه عن إلقاء كل ما ورثه عن أبيه وأمه في الشارع، وفوق الأسطح المجاورة، وحين انتهى من كل شيء، فرش ملاءة على الأرض ليستريح قليلا، فرأى ميدان عابدين متألقا بأضواء السيارات عبر مرآة معلقة فكسرها.. ثم أطفأ النور، وحاول أن ينام فلازمه الأرق وطاردته الكوابيس والمخاوف!!

ماذا يفعل الآن؟.. وأين توجد تلك الكاميرات بالضبط: في شقته أم في عقله؟

وهل انتقم من جلاديه.. وكاشفي أسراره؟ أم انتقم من نفسه؟!

لم يكن أمامه أي حل آخر.. فما زال يذكر ذلك الفيلم الأمريكي الذي تجسست فيه المخابرات على تليفون عميل، حتى وهو مغلق!!

فهل يتركهم يخترقونه، ويحولوا جسده إلى صندوق زجاجي لا يحمي ولا يستر؟

وما معنى أن يفقد المرء حريته وسيادته حتى داخل شقته وخندقه الأخير؟! إذن لا يكفي أن تكون طيبا، ومنعزلا، لتنعم

بالسلام والأمان، وما عليك إلا أن تبتسم لأعـداتك وأنـت تشـحذ بلطتك!

وفيما كان صفوان يحاول أن يوقف طبول الحرب في داخلـه، علّه ينسى بعض ما جرى، سمع طرقا خفيفا ــ ومتباعداً ــ علـى بابه، فتحسس بلطته في الظلام، لكنه أدرك أن قدرته على رفعهـا لم تعد ممكنة ، لكن الطـرق عـاد مـن جديـد أكثـر إلحاحـا واسترابة، فصاح وهو بين اليأس والرجاء:

ــ مين؟

وانتظر فترة عصيبة، قبل أن يأتيه الرد هامسا:

ــ أفتح يا صفوان .. أنا نوال!

وما كاد يسمع اسمها حتى شملته الطمأنينة، فأراح جسده علـى الأرض، وكأنه ملاءة فُرشت على ملاءة، وسـمح لهـا بالـدخول فسمعها وهي تدفع الباب بهدوء وتضئ النور، ثم تقتـرب بحـذر وارتباك، قبل أن تضع يدها على ظهره الموجوع، وترى الخـراب من حوله:

ــ إيه اللي عملته ده يا مجنون؟.. حد يعمل كده؟

ــ ....

ــ إنت قافل تليفونك ليه.. أنا حاولت اتصل بيك لكن..

ونظرت حولها فاكتشفت أنه رمي بكل شيء، فلم تعـد بحاجـة لأي إجابات. شكي صفوان من الرقابة.. وأنه يكاد يفقد عقله، قـال إنهم يحاربونه في خندقه الأخير.. وما عليه إلا أن يقاوم!!

– "هما مين دول؟.. أنا كنت بأهزر معاك يا صفوان.. تصوير إيه اللي بتتكلم عنه؟ إنسي بقى.. أنا كان قصدي إني شيفاك في تليفزيون قلبي وروحي، والطبيعي لما تتكلم في التليفون أنك تتكلم من السماعة مش النجفة.. ولا إيه؟ متاخدش كل حاجة جد كده.. قوم.. قوم أغسل لك راسك على الحنفية".

وحاولت أن تنهضه فلم يساعدها.. كان الانكسار يمنعه من الوقوف، ويؤثر حتى على تنفسه، فما قيمة أن يحرص على أي شيء، أو يدافع عن أي قيمة؟

تركته نوال وراحت تبحث عن أي شيء تملأه بماء فلم تجد، فملأت كفيها وعادت لتدلك به ظهره، وهي تحاذر الجروح والخدوش.

– عرفت إن أمك ماتت؟!

– حسيت!!

قال ذلك وقد داهمه شعور ساحق باليتم والكهولة! قالت :

– البقاء لله!!

وبمنطق المرأة التي قررت أن تقيم، قامت وكنست ما حوله فوجدت لفافة النقود الضائعة – وضعتها في يده، ثم حاولت أن تضع أكلا في فمه فلم يستطع مضغه، سقته بعض العصائر التي أتت بها، وأخذته في حضنها فشعر بأمان وسكينة لم يشعر بهما حتى في وجود أبويه، دفن وجهه بين ثدييها، وكأنه يود لو يعود لطفولته الأولى.. حيث الأمان والبراح، وداهمه إحساس مرير بأنه

لم يجن الكثير من هذه الدنيا بمفرده!! وأنه حاقد علـى كـل مـن وضعوا أيديهم المعقمة في جراب العمر.. وسرقوه!!

وعند هذه النقطة لم يستطع منع دموعه، ولا كـبح انتفاضـات جسده، فبكي على صدرها كطفل يتيم، وتركته يفرغ أحزانه علـى صدرها، شاعرة بجسمه المرتعد يشهق بين ذراعيها كطائر ذبيح.. لم تكن تدري أنه ضعيف إلي هذه الدرجة..

ولم يكن يدرى أنه وحيد إلى هذا الحد!!

فبعد أن هدأت أعصابه، وانتظمت ضربات قلبه، فتحـت كـل النوافذ ليدخل الضوء والهواء، ثم ساندته إلى النافذة المطلة علـى الميدان، فرأي القصر الكبيـر، ورأي الميـدان يغتسـل بضـوء الصباح.

ـ نبني القصور ولانسكن القصور!

هكذا همست نوال، وهي تتطلع نحو القصر البعيد .. ثم ترنـو إلى صفوان بعينين شاخصتين مترعتين بالندي، لم يفهمهـا علـى الفور، لكنه أدرك أن في عينيها عمقا وغموضا لم يسـبق لـه أن لاحظهما من قبلً

ـ تيجي نسكن القصر؟

ـ ياريت.

هكذا رد وهو يتأمل رموشـها السـوداء الطويلـة، وعينيهـا الواسعتين القريبتين ، عيون المرأة حين تطلب، وترغب، كما رأت في عينيه ضعف الطفل العنيد، الذي يعض أصابعه ليؤلم أمه!!

ـ شايف العروسة اللي هناك؟

مسح الميدان بعينيه فلم يجد شيئاً..

o فين ؟

وضعت خدها على خده، وأشارت للبعيد:

ــ هناك.. اللي لابسه أبيض في أبيض!

o دي ملاك دي .. ولا إيه ؟

ــ أبدا .. دي مجرد عروسة جميلة.. عايزه تفرح زى غيرها.

o شايفه اللي جالها بالحصان الأبيض؟

ــ آه.. دا خدها قدامه على الحصان!!

o تستاهل.. إيه اللي وقفها قدامه؟!

ــ دا لابس أبيض في أبيض.. زيها !!

o وفي إيده ورده حمرة !!

ــ تحب نبلغ البوليس ؟

o حرام .. جايز ميكونش معاهم ربع جنيه!

ــ يعني نسيبه يخطفها؟

o تستاهل !!

ــ إيه ده ؟.. يا .. يا ... قليل الأدب !!

o ماله ؟

ــ باسها في الشارع

o تستاهل

ــ إزاي ؟.. عيني عينك كده؟.. ما جايز تضعف!

o خلى الإنسان يضعف مرة.. عشان يجمد بعد كده.

ـ إنت اللي بتقول كده يا صفوان؟.. إنـت يـا.. يـا.. ياراكـب الحصان!

o سيبيه يعلن عن أصدق ما فيه!

ـ من غير مأذون؟.. بص.. بص.. شايف اللي أنا شايفاه ؟

o شايف وحاسس!

ـ الحصان بيطير بيهم!!

o خليه يطير .. إحنا خدنا إيه من الأرض؟

ـ ولو وقعوا على جدور رقابهم؟

o متخافيش من اللي بيطير.. خافي من اللي بيزحف!!

ـ دول قربوا يوصلوا للقمر.. شايف القمر؟.. بيشاور لهم!

o أي قمر فيهم؟

ـ اللي على الشمال

o الأخضر.. ولا الأبيض ؟

ـ مش عارفه !!

o ...... !

ـ حرام عليك يا صفوان

o عليّ ولا عليه؟

ـ عليه !!

o ولا علينا كلنا ؟!

كان صفوان يقبل عنقها الأسيل، وهو بين الصحو والمنام، فيما كان الضـباب يحجـب القصـر الكبيـر، ويـوقظ الطيـر فـي وكناته، والشمس من رقادها الطويل..

ـــ شايف الناس اللي في الميدان؟..

هكذا همست نوال، وهي تلمس أذنه بشفتيها.

- واحد شايل ، والتاني متشال .

ـــ دنيا مفيهاش عدل !

- لأن مفيهاش عقل.

ـــ عرفتها متأخر قوى يا صفوان!

- ويا ريتني ما عرفتها.

شعر صفوان بدمعة ساخنة تسقط على يده، فلم يعرف مصدرها، لكنه توقف عن الهمس، حين أدرك أنه خسر كل شيء، ولم يعد لديه ما يراهن به، أو عليه! فحتى هذه الشقة اللحدية، يمكن أن يهدموها في أي وقت!.. أو يضموها للقصر الكبير.

فليهدموها ـــ إذن ـــ على جسده، فلم يعد هناك ما يخافه، أو ينتظره. فإن كان قدره أن يحارب ويصارع ما بقي حياً .

فما عليه إلا أن ينتصر،

وأن يحتفظ بآخر طلقة لديه.

بعد أن وصل إلى حافة الحافة.

وأدار ظهره للحائط الأخير.

الهرم ـــ 2004

صدر للمؤلف :

- سبع وريقات شخصية .. لعامل التحويلة المنتحر

مجموعة قصصية – هيئة الكتاب – 1993

- تطهر الفارس القديم

مجموعة قصصية – سلسلة أدب الحرب – هيئة الكتاب 1996

- حارس الغيوم

مجموعة قصصية – سلسلة "أصوات" – الهيئة العامة لقصور الثقافة 1996

- البعد الغائب

دراسات في القصة والرواية – مركز الحضارة العربي وهيئة قصور الثقافة 2000

تحت الطبع :

الضوء والنار	دراسات أدبية
شتاء العمر	مجموعة قصصية
أخبار سوسو	مجموعة قصصية
قصة الجيل الخامس	دراسات في القصة السبعينية
أربع روايات قصيرة	روايات قصيرة
الحائط الأخير	رواية